International Academic Journal for Islamic Studies
2(1)(2020)1-46

الرايه الدولية الالكترونية
INTERNATIONAL ELECTRONIC ALRRAYIH

المجلة الأكاديمية العالمية للشريعة الإسلامية وعلومها
٢(١)(٢٠٢٠) ١-٤٦

صفة كلام الله تعالى بين السلف والمعتزلة

إعداد

الدكتور نسيم شحدة ياسين

الأستاذ المشارك بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

كلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية – بغزة

شعبان/١٤٤٠هـ-إبريل/٢٠١٩م

ملخص

يحتوى البحث على تقرير عقيدة السلف في صفة الكلام لله تعالى، والرد على شبه المناوئين بشكل عام وعلى المعتزلة بشكل خاص، مع بيان أن صفة الكلام صفة ثابتة لله تعالى بالنقل والعقل، وهي قائمة به، وهي صفة ذاتية وفعلية، ويتكلم بحرف وصوت مسموع ويتكلم وقتما شاء وكيفما شاء، وفي المقابل تم بيان عقيدة المعتزلة في هذه الصفة، ورد قولهم في نفيها وقولهم أن القرآن مخلوق، والحمد لله رب العالمين.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا وبعد، فإن مسألة إثبات صفات الله تعالى من أعظم مسائل التوحيد، وقد اختلف فيها كثير من الناس ممن خلف السلف فمذهبهم، ولذلك رأينا من الضروري في هذه المسألة لإثبات ما أثبته السلف الصالح رضوان الله عليهم، والتأكيد عليه، والرد على المخالفين، خاصة المعتزلة الذين قدموا العقل عن النقل في منهجهم، فكان هذا البحث بعنوان" صفة كلام الله تعالى بين السلف والمعتزلة" .

أولا: أسباب اختيار الموضوع.

١- سبب اختيار هذه الصفة بالذات، أنها صفة ذاتية فعلية، فبإثباتها اثبات بقية الصفات الذاتية والفعلية؛ وذلك نظراً لتشابه الشبه المطروحة من قبل المناوئين في ذلك.

٢- الوقوف على طريقة السلف في اثبات صفات الله تعالى، وطريقتهم في الرد على المناوئين.

٣- الوقوف على نموذج من نماذج أهل التأويل والتعطيل؛ لرد شبههم ومعرفة منهجهم وطريقتهم في نفي صفات الله تعالى.

ثانياً: أهمية البحث.

يتطرق البحث لمسألة من أهم مسائل العقيدة، وهي اثبات صفات الله تعالى؛ وكون صفة الكلام من الصفات التي كثر فيها الجدل والكلام ثمّ اختيارها كنموذج يمكن من خلاله اثبات بقية الصفات.

ثالثاً: منهج البحث:

سأعتمد في بحثي هذا المنهج الوصفي التحليلي بإذن الله تعالى.

رابعا: خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة.

التمهيد:

أولا تعريف الصفة لغة واصطلاحاً.

ثانياً: منهج السلف والمعتزلة في اثبات الصفات.

المبحث الأول: صفة الكلام عند السلف وأدلتهم في اثباتها.

المطلب الأول: حقيقة قول السلف في صفة الكلام لله تعالى.

المطلب الثاني: أدلتهم النقلية والعقلية في اثبات هذه الصفة لله تعالى.

المبحث الثاني: صفة الكلام عند المعتزلة وأدلتهم.

المطلب الأول: حقيقة قول المعتزلة في صفة الكلام لله تعالى.

المطلب الثاني: أدلتهم النقلية والعقلية في نفي هذه الصفة عن الله تعالى، والقول بخلف القران، ومناقشتها.

الخاتمة وفيها: أهم النتائج والتوصيات.

المراجع والمصادر.

تمهيد

أولاً: تعريف الصفة لغة واصطلاحاً.

١- تعريف الصفة لغةً:

الصفة يبحث عنها في مادة وصف، و" الواو والصاد والفاء: أصل واحد، هو تحلية الشيء، ووصفته أصفه وصفا. والصفة: الأمارة اللازمة للشيء"[١]

وهي " الحالة التي يكون عليها الشيء من حليته ونعته كالسواد والبياض والعلم والجهل، وعِنْد النَّحْوِيين: النَّعْت وَاسم الْفَاعِل وَاسم المَفعُول وَالصّفة المشبهة وَاسم التَّفْضِيل أَيْضا"[٢]

٢- تعريف الصفة اصطلاحاً:

عرف الدكتور محمد التميمي الصفات الإلهية الثبوتية فقال: " هي ما قام بالذات الإلهية مما يميزها عن غيرها ووردت به نصوص القرآن والسنة"[٣]

مفردات التعريف باختصار:

- أما قوله حفظه الله تعالى: (ما قام بالذات).

"يخرج من هذا التقييد ما كان من إضافة المُلْك والتشريف"[٤] ويبقى ما كان إضافة الصفة للموصوف أما الملك كقوله: {نَاقَةَ اللَّهِ} [الشمس: ١٣]، وأما الصفة كقوله: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥]. فإضافة اليد اضافة صفة لموصوف.

---

[١] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (٦/ ١١٥).
[٢] مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (٢/ ١٠٣٧).
[٣] الجامي، الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه (ص: ١٢).
[٤] التميمي، الصفات الإلهية تعريفها، أقسامها (ص: ١٢).

- وقوله: (بالذات الإلهية).[١]

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن: " أصل هذه اللفظة هو تأنيث ذو بمعنى صاحب فذات صاحبة كذا في الأصل ولهذا لا يقال ذات الشيء إلا لما له صفات ونعوت تضاف إليه فكأنه يقول صاحبة هذه الصفات والنعوت"[٢]

وقال ابن تيمية في الكلام على لفظة الذات المحلاة بأل : "وفصل الخطاب أنها ليست من العربية العرباء بل من المولدة كلفظ الموجود ولفظ الماهية والكيفية ونحو ذلك، اللفظ يقتضي وجود صفات تضاف الذات إليها فيقال ذات علم وذات قدرة وذات كلام والمعنى كذلك، فإنه لا يمكن وجود شيء قائم بنفسه في الخارج لا يتصف بصفة ثبوتية أصلاً، بل فرض هذا في الخارج كفرض عرض يقوم بنفسه لا بغيره. ففرض عرض قائم بنفسه لا صفة له كفرض صفة لا تقوم بغيرها، وكلاهما ممتنع، فما هو قائم بنفسه فلا بدله من صفة، وما كان صفة فلا بد له من قائم بنفسه متصف به"[٣].

- وقوله: (مما يميزها عن غيرها).

قال صاحب التعريف حفظه الله تعالى: " في هذا إشارة إلى وظيفة الصفة، فالله ﷻ وصف نفسه بصفات كثيرة، تَعَرَّفَ بها إلى عباده، وهذه الصفات هي التي تميز الخالق ﷻ عما سواه..."[٤] والمقصد والله أعلم من كلام الدكتور هو بيان الفرق بين صفة الخالق وصفة المخلوق.

- وقوله: (ووردت به نصوص الكتاب والسنة).

ويعني بذلك أنها توقيفية لا اجتهادية قال أحمد بن حنبل: " لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يثبتون له ما أثبته لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العليا"[٥]

---

[١] قال ابن القيم رحمه الله ﷺ: " أنكر جماعة من النحاة منهم ابن برهان وغيره على الأصوليين قولهم الذات وقالوا لا مدخل للألف واللام هنا كما لا يقال الذو في ذو وهذا إنكار صحيح والاعتذار عنهم أن لفظة الذات في اصطلاحهم قد صارت عبارة عن الشيء نفسه وحقيقته وعينه فلما استعملوها استعمال النفس والحقيقة عرفوها باللام وجردوها ومن هنا غلطهم السهيلي فإن هذا الاستعمال والتجريد أمر اصطلاحي لا لغوي فإن العرب لا تكاد تقول رأيت الشيء لعينه ونفسه وإنما يقولون ذلك لما هو منسوب إليه ومن جهته" ابن القيم، بدائع الفوائد (٢/ ٧).

[٢] ابن القيم، بدائع الفوائد (٢/ ٧).

[٣] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٦/ ٩٩).

[٤] التميمي، الصفات الإلهية تعريفها، أقسامها (ص: ١٤).

[٥] الذهبي، العرش (١/ ١٨٨). ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٥/ ٢٥٧).

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن عبارات السلف تدور حول معانٍ أربعة في اثبات الصفات العليا لله ﷻ لا تتجاوزها وهي:

– ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر، علمها العباد أو جهلوها.

– وجودها في العلم والتصور، وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف: إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه.

– ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها عن النقائص والعيوب والمثيل.

– محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه، وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل كان هذا الحب والإخلاص أقوى.[١]

ويمكن تعريفها: هو الإيمان بما وصف الله ﷻ به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ اثباتاً أو نفيا دون الالحاد فيها.

ثانياً: منهج السلف والمعتزلة في اثبات الصفات.

١– منهج السلف في اثبات صفات الله تعالى.

منهج السلف رضوان الله عليهم هو نفس ما جاء به القرآن، وهو الإثبات المفصل والنفي المجمل وذلك لقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، وهم ويثبتون ما أثبته الله ﷻ لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ، والصفات الإلهية من حيث الاتصاف بها وعدمه عندهم، تنقسم إلى قسمين: صفات ثبوتية وصفات سلبية، فالصفات السلبية هي ما نفاه الله عن نفسه مع تضمن النفي للكمال فلا ينفون نفياً مطلقاً لا يثبت كمالاً؛ فالنفي المحض لا مدح فيه، وبيان ذلك من قول ابن تيمية رحمه الله تعالى: " فإن الله موصوف بصفات الكمال الثبوتية كالحياة والعلم والقدرة، فيلزم من ثبوتها سلب صفات النقص، وهو سبحانه لا يمدح بالصفات السلبية إلا لتضمنها المعاني الثبوتية، فإن العدم المحض والسلب الصرف لا مدح فيه ولا كمال، إذ كان المعدوم يوصف بالعدم المحض، والعدم نفي محض لا كمال فيه، إنما الكمال في الوجود.

---

[١] انظر: ابن الموصلي، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ١٦٦)

ولهذا جاء كتاب الله تعالى على هذا الوجه فيصف سبحانه نفسه بالصفات الثبوتية صفات الكمال وبصفات السلب المتضمنة للثبوت كقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} [البقرة: ٢٥٥] فنفي أخذ السنة والنوم يتضمن كمال حياته وقيوميته"[١]

وقال في موضع أخر: " والله سبحانه بعث أنبياءه صلوات الله عليهم بإثبات مفصل، ونفي مجمل، فأثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مماثلة المخلوقات، ومن خالفهم من المعطلة المتفلسفة وغيرهم عكسوا القضية، فجاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل، يقولون ليس كذا، ليس كذا، ليس كذا"[٢]

أقسام الصفات الثبوتية من حيث التعلق بالذات:

القسم الأول: صفات ذاتية: وهي التي لم يزل ولا يزال الله تعالى متصفاً بها، كالعلم، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والوجه، واليدين، ونحو ذلك من الصفات التي هي من لوازم ذاته تعالى.

القسم الثاني: صفات فعلية: وهي الصفات المتعلقة بمشيئة الله وقدرته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، كالمجيء، والنزول، والغضب، والفرح، والضحك، ونحو ذلك، وتُسمى: الصفات الاختيارية أو الأفعال الاختيارية.[٣]

وصفة الكلام تدخل في القسمين من الصفات الذاتية والفعلية، فهو يتكلم بما شاء وقتما شاء، وهي لازمة له لا تنفك عنه ﷻ.[٤]

٢- منهج المعتزلة في اثبات الصفات.

منهج المعتزلة في صفات الله تعالى هو التعطيل والنفي المحض، وهذا ما بينه أبو الحسن الأشعري فقال: المعتزلة ينقسمون إِلَى عشْرين فرقة فمما اتّفق عَلَيْهِ جَمِيعهم من مساوئ فضائحهم نفيهم صِفَات الْبَارِي ﷻ حَتَّى قَالُوا: أَنه لَيْسَ لَهُ ﷻ علم وَلَا قدرَة وَلَا حَيَاة وَلَا سمع وَلَا بصر وَلَا بَقَاء، وَأَنه لم يكن لَهُ فِي الْأَزَل كَلَام وَلَا إرادة، وَلم يكن لَهُ فِي الْأَزَل اسْم

---

[١] ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٣/ ٢٠٩).

[٢] ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ٣٩٥).

[٣] انظر: الذهبي، العرش (١/ ١٠٣). الهراس، شرح العقيدة الواسطية (ص: ١٥٩). الجبرين، تسهيل العقيدة الإسلامية (ص: ١٠١-١٠٢).

[٤] انظر: ابن تيمية، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، (١/ ٣٣٠). الجامي، الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء ضوء الإثبات والتنزيه (ص: ٢٠٤). ابن عثيمين، شرح العقيدة السفارينية (١/ ١٥٥).

وَلَا صفة؛ لِأَن الصّفة عِنْدهم هُوَ وصف الواصف وَلم يكن فِي الْأَزَل واصف، وَالِاسْم عِنْدهم التَّسْمِيَة وَلم يكن فِي الْأَزَل مسم، إذ لم يكن لَهُ كَلَام فِي الْأَزَل عِنْدهم، وَهَذَا يُوجب أَن لَا يكون لمعبودهم اسْم وَلَا صفة..."[1]

ونقل عنهم ابن تيمية أنهم قالوا: " من أثبت الصفات فهو مشبه ليس بموحد وأنه يثبت تعدد القدماء لا يجعل القديم واحدًا فقط"[2]

وقال القاضي عبد الجبار وهو من كبار المعتزلة: " لو كان الله تعالى حياً بحياة، والحياة لا يصح الإدراك إلا بعد استعمال محلها في الإدراك ضرباً من الاستعمال، لوجب أن يكون القديم تعالى جسماً، وذلك محال، وكذلك الكلام في القدرة لا يصح الفعل إلا بعد استعمال محلها في الفعل أو في سببه ضرباً من الاستعمال، فيجب أن يكون لله تعالى جسماً محلا للأعراض، وذلك لا يجوز "[3]

فبقوله هذا نفى الصفات الذاتية والصفات الفعلية؛ فقد قصد بذلك أن اثبات صفة الحياة بحياة وقدرة بقدرة وعلم بعلم أي يعلم بعلم ويقدر بقدرة، يستلزم هذا التجسيم لاختلاف محل العلم واختلاف محل القدرة، وقوله محلاً للأعراض أي لليد والوجه فهذه تسمى أعراض عندهم، وهم ينفونها.

وقال ابن تيمية أن الجهمية والمعتزلة قالوا: " إن الله لم يقم به صفة من الصفات لا حياة ولا علم ولا قدرة ولا كلام ولا إرادة ولا رحمة ولا غضب ولا غير ذلك، بل خلق كلاماً في غيره فذلك المخلوق هو كلامه".[4]

وهم مضربون في مذاهبهم فها هو الشهرستاني يقرر عقيدة أبو الهذيل في صفات الله تعالى فيقول: " كان أبو الهذيل العلاف شيخهم الأكبر؛ وافق الفلاسفة في أن الباري تعالى عالم بعلم، وعلمه ذاته، وكذلك قادر بقدرة، وقدرته ذاته"[5]

واختلف مع غيره من المعتزلة بقوله عالم بعلم؛ فهم يقولون عالم بغير علم، وبما أنه قال أنه عالم بعلم فيلزمه أن صفة العلم غير صفة القدرة، والكلام في الصفات كالكلام في الذات، فهذا هو الحق والصفات دالة على الذات وهي قائمة

---

[1] الاسفراييني، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص: ٦٣). وانظر: الشهرستاني، الملل والنحل (١/ ٢٩).

[2] ابن تيمية، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٩٤).

[3] الهمداني، شرح الأصول الخمسة (ص: ٢٠٠-٢٠١).

[4] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٨)

[5] الشهرستاني، الملل والنحل (١/ ٢٩).

بها، واللفظ هل هي غير ذاته أم عين ذاته لا يصح من أصله لما فيه من إجمال والتباس، وهو من الأمور المبتدعة التي لا يجوز الخوض فيها أصلاً، ومحل بسطه ليس في هذا الموضع.[١]

المبحث الأول

صفة الكلام لله تعالى عند السلف، وأدلتهم على ذلك.

المطلب الأول

حقيقة قول السلف في صفة الكلام لله تعالى.

اعتقاد السلف في هذه الصفة هو: الاعتقاد بأن الله ﷻ يتكلم بحرف وصوت مسموع وقتما يشاء وكيفما يشاء، وهي صفة فعلية ذاتية لله تعالى تتعلق بمشيئته.[٢]

وقد قرر ابن تيمية أن هذا مذهب السلف فقال: " فإن السلف وأئمة السنة والحديث يقولون: يتكلم بمشيئته وقدرته؛ وكلامه ليس بمخلوق؛ بل كلامه صفة له قائمة بذاته، وممن ذكر أن ذلك قول أئمة السنة: أبو عبد الله ابن منده[٣]، وأبو عبد الله ابن حامد[٤]، وأبو بكر عبد العزيز[٥] وأبو إسماعيل الأنصاري[٦] وغيرهم؛ وكذلك ذكر أبو عمر بن عبد البر[٧] نظير هذا في الاستواء، وأئمة السنة كعبد الله بن المبارك[٨]، وأحمد بن حنبل، والبخاري[١]، وعثمان بن سعيد

---

[١] انظر في هذا الصدد: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ٣٢٧) والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٥/ ١٧) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٦) وجميعهم لابن تيمية رحمه الله ﷻ.

[٢] انظر: السجزي، رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص: ٢٢٧).

[٣] انظر: ابن منده، الإيمان (١/ ٣٢٨).

[٤] هو شيخ الحنابلة ومفتيهم، أبو عبد الله الحسن بن حامد بن علي بن مروان البغدادي، الوراق (...- ٤٠٣هـ)، مصنف كتاب (الجامع) في عشرين مجلدا في الاختلاف. وهو أكبر تلامذة أبي بكر غلام الخلال. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٠٣).

[٥] هو الشيخ، الإمام، العلامة، شيخ الحنابلة، أبو بكر عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يزداد البغدادي الفقيه، (٢٨٥هـ- ٣٦٣هـ) تلميذ أبي بكر الخلال. كتاب (المقنع) وهو نحو مائة جزء، وكتاب (الشافي) نحو ثمانين جزءا، وكتاب (زاد المسافر) ، وكتاب (الخلاف مع الشافعي) ، وكتاب (مختصر السنة). انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٤٣- ١٤٤).

[٦] هو عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، أبو إسماعيل: شيخ خراسان في عصره. من كبار الحنابلة. من ذرية أبي أيوب الأنصاري. الأنصاري. (٣٩٦ – ٤٨١ هـ)، كان بارعا في اللغة، حافظا للحديث، عارفا بالتأريخ والأنساب. مظهرا للسنّة داعيا إليها. امتحن وأوذي وسمع يقول: " عرضت على السيف خمس مرات، لا يقال لي ارجع عن مذهبك، لكن يقال لي اسكت عمن خالفك، فأقول: لا أسكت! " من كتبه " ذم الكلام وأهله. الأعلام للزركلي (٤/ ١٢٢)

[٧] انظر: ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٩/ ٢٣١).

[٨] انظر: البخاري، خلق أفعال العباد (ص: ٣١).

الدارمي[٢]، ومن لا يحصى من الأئمة، وذكره حرب بن إسماعيل الكرماني[٣]عن سعيد بن منصور[٤]، وإسحاق بن إبراهيم[٥]، وسائر أهل السنة والحديث، متفقون على أنه متكلم بمشيئته، وأنه لم يزل متكلماً إذا شاء وكيف شاء".[٦]

وقال كذلك في موضع أخر: وجمهور المسلمين يقولون: " إن القرآن العربي كلام الله وقد تكلم الله به بحرف وصوت".[٧]

وقال ابن أبي العز الحنفي: " افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال فذكرهم ثم قال: وتاسعها: أنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة".[٨]

وبعض المتكلمين يتفقون مع السلف في اثبات هذه الصفة كالأشاعرة والماتردية والكلابية.. ولكنهم يختلفون مع السلف في معنى كلام الله تعالى هل هو كلام نفسي، أم أنه كلام حقيقي بحرف وصوت؟.[٩]

والحق أنه كلام حقيقي بحرف وصوت، وهذه الصفة تدخل في صفات الله تعالى الفعلية الاختيارية التي يقال لها قديمة النوع حادثة الآحاد، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: " الصفات الاختيارية: هي الأمور التي يتصف بها الرب عز وجل

---

[١] انظر: المرجع السابق، ص٤٤.

[٢] انظر: الدارمي، نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله ﷻ من التوحيد (١/ ٥٢٤).

[٣] انظر: الكرماني، اجماع السلف في الاعتقاد (ص: ٦٤).

[٤] هو الحافظ، الإمام، شيخ الحرم، أبو عثمان الخراساني، المروزي، ويقال: الطالقاني ثم البلخي، ثم المكي المجاور (...- ٢٣٧هـ)، مؤلف كتاب (السنن). وهو من تلامذة الإمام مالك بن أنس والليث بن سعد، وفضيل بن عياض وابن عيينة، وكان ثقة، صادقا، من أوعية العلم، روى عنه: أحمد بن حنبل، وأبو محمد الدارمي، وأبو داود، ومسلم. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٨٦- ٥٨٧).

[٥] هو الإمام، المحدث، الصدوق، أبو بكر، إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله بن بكير بن زيد، النهشلي الفارسي، شاذان، (...- ٢٦٧هـ)، سمع من: جده سعد بن الصلت القاضي – وجده هذا كوفي من طبقة وكيع، وسمع من أبي داود الطيالسي، وحدث عنه: أبو بكر بن أبي داود، ارتحل إليه، وأحمد بن علي الجارودي، ونصر بن أبي نصر الشيرازي، وعبد الرحمن بن خراش الحافظ، قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: كتب إلي وإلى أبي، وهو صدوق. الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٨٢- ٣٨٣) بتصرف يسير.

[٦] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٦/ ٢١٨).

[٧] المرجع السابق، (٥/ ٥٥٦).

[٨] ابن أبي العز، شرح الطحاوية (ص: ١٦٨-١٦٩).

[٩] انظر: الحكمي، معارج القبول بشرح سلم الوصول (١/ ٢٥٥).

فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته؛ مثل كلامه وسمعه وبصره وإرادته ومحبته ورضاه ورحمته وغضبه وسخطه؛ ومثل خلقه وإحسانه وعدله؛ ومثل استوائه ومجيئه وإتيانه ونزوله، ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز والسنة".[١]

وقال أيضاً: " أئمة أهل الملل وأئمة السنة كعبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما ممن يقول بأن الله لم يزل متكلماً إذا شاء، وأن كلمات الله ﷻ لا نهاية لها، وهي قائمة بذاته وهو متكلم بمشيئته وقدرته"[٢].

أخرج عبد الله بن أحمد عن عبد الله بن نافع أنه قال: كان مالك بن أنس رحمهم الله جميعاً يقول: " الإيمان قول وعمل، ويقول: كلم الله موسى...، وأورد كذلك عن أبي عبد الله السلمي، قال: سألت أحمد بن حنبل بعد ما أخرج من السجن بسنتين: ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله غير مخلوق، وقال: من روى عني غير هذا القول فهو مبطل قلت له: إن بعض من ذكر عنك أنك قلت له: هو كلام الله لا مخلوق ولا غير مخلوق ولكن هو كلام الله، فقال أحمد: أبطل، ما قلت هذا، ولكنه هو كلام الله غير مخلوق... وقال عبد الله بن أحمد: سألت أبي رحمه الله عن قوم، يقولون: لما كلم الله ﷻ موسى عليه السلام لم يتكلم بصوت فقال أبي: بلى إن ربك ﷻ تكلم بصوت هذه الأحاديث نرويها كما جاءت".[٣]

وهو مذهب الصحابة رضي الله عنهم حيث نقل الإمام اللالكائي عن عمرو بن دينار قال: " أدركت تسعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: من قال القرآن مخلوق؛ فهو كافر".[٤]

وقال ابن أبي يعلى في الاعتقاد: " لم يزل ولا يزال متكلماً، ولا يجوز مفارقته بالعدم لذاته[٥]، وأنه يُسْمَع تارة من الله ﷻ، وتارة من التالي فالذي يسمعه من الله ﷻ من يتولى خطابه بنفسه لا واسطة ولا ترجمان: كنبينا محمد ﷺ ليلة المعراج لما كلمه، وموسى عليه السلام على جبل الطور، فكذلك سبيل من يتولى خطابه بنفسه من ملائكته، ومن عدا ذلك فإنما يسمع كلام الله القديم على الحقيقة من التالي، وهو حرف مفهوم، وصوت مسموع".[٦]

---

[١] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٦/ ٢١٧).

[٢] المرجع السابق، (١٢/ ٤٥). وانظر: المقدسي، الاقتصاد في الاعتقاد (ص: ١٣٠).

[٣] ابن أحمد، السنة (١/ ٢٨٠).

[٤] اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٢٥٩)

[٥] هذه العبارة تحتاج إلى تدقيق، والظاهر أنه يعني أن هذه الصفة لازمة لذاته، ولا يعنى آحادها عدمها أو أنها لم تكن ثم كانت.

[٦] ابن أبي يعلى، الاعتقاد (ص: ٢٥).

وذكر الإمام البربهاري أن من عقائد السلف: " الإيمان بأن الله تبارك وتعالى هو الذي كلم موسى بن عمران عليه السلام يوم الطور، وموسى عليه السلام يسمع من الله الكلام بصوت وقع في مسامعه منه لا من غيره، فمن قال غير هذا فقد كفر".[١]

وقال ابن عثيمين: "عقيدة أهل السنة والجماعة: أن الله يتكلم بكلام حقيقي متى شاء، كيف شاء، بما شاء، بحرف وصوت، لا يماثل أصوات المخلوقين.

متى شاء : باعتبار الزمن.

بما شاء: باعتبار الكلام؛ يعني: موضوع الكلام من أمر أو نهي أو غير ذلك.

كيف شاء: يعني على الكيفية والصفة التي يريدها سبحانه وتعالى".[٢]

والكلام في القرآن يعتبر من قبيل الكلام في صفة كلامه ﷻ؛ ومن هذا ربط الإمام أحمد الحديث عن صفة كلامه ﷻ بالحديث عن القرآن فقال: " إن كلام الله ليس ببائن منه وليس منه شيء مخلوقاً، وإياك ومناظرة من أُخذل فيه، ومن قال باللفظ وغيره، ومن وقف فيه فقال: لا أدري مخلوق أو ليس بمخلوق؟ وإنما هو كلام الله، فهذا صاحب بدعة مثل من قال: هو مخلوق. وإنما هو كلام الله ليس بمخلوق..."[٣]

وكان الإمام أحمد يمنع أن يقال: لفظي بالقرآن مخلوق، أو غير مخلوق لما فيه من الإيهام والإجمال؛ لأن اللفظ يدخل في مسمى الكلام، فالكلام لفظ ومعنى، والقرآن لفظه ومعناه من الله تعالى فإذا قلنا أنه مخلوق ففيه إيهام، أيهما تقصد لفظك أنت أم اللفظ الداخل في مسمى الكلام؛ لهذا فالأسلم أن نقول صوتي بالقرآن مخلوق أو القرآن غير مخلوق، والله خلق الإنسان وعمله كما هو مذهب السلف وكما بين البخاري ذلك في كتاب خلق أفعال العباد البخاري.[٤]

---

[١] البربهاري، شرح السنة (ص: ٨٤).

[٢] ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية (١/ ٤١٩).

[٣] ابن حنبل، أصول السنة (ص: ٢٢).

[٤] انظر: ابن أحمد، السنة (١/ 163-١٦٥). عبد الله، مقدمة التحقيق على رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص: ٢٢).

وبين ابن تيمية ذلك النزاع وحل اشكاله فقال: " تنازع بعض المتأخرين في الحروف الموجودة في كلام الآدميين؛ وسبب نزاعهم أمران، أحدهما: أنهم لم يفرقوا بين الكلام الذي يتكلم الله به فيسمع منه وبين ما إذا بلغه عنه مبلغ فسمع من ذلك المبلغ، فإن القرآن كلام الله تكلم به بلفظه ومعناه بصوت نفسه؛ فإذا قرأه القراء قرأوه بأصوات أنفسهم، فإذا قال القارئ: {الحمد لله رب العالمين} {الرحمن الرحيم} كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه، وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت الله فالكلام كلام الباري والصوت صوت القارئ... .

والسبب الثاني: أن السلف قالوا: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق وقالوا لم يزل متكلما إذا شاء، فبينوا أن كلام الله قديم أي جنسه قديم لم يزل ولم يقل أحد منهم إن نفس الكلام المعين قديم ولا قال أحد منهم القرآن قديم؛ بل قالوا: إنه كلام الله منزل غير مخلوق، وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن بمشيئته كان القرآن كلامه وكان منزلاً منه غير مخلوق ولم يكن مع ذلك أزلياً قديماً بقدم الله وإن كان الله لم يزل متكلماً إذا شاء فجنس كلامه قديم... ومن قال إن الحرف المعين أو الكلمة المعينة قديمة العين فقد ابتدع قولا باطلاً في الشرع والعقل، ومن قال: إن جنس الحروف التي تكلم الله بها بالقرآن وغيره ليست مخلوقة وإن الكلام العربي الذي تكلم به ليس مخلوقاً والحروف المنتظمة منه جزء منه ولازمة له، وقد تكلم الله بها فلا تكون مخلوقة فقد أصاب، وإذا قال إن الله ﷻ هدى عباده وعلمهم البيان فأنطقهم بها باللغات المختلفة وأنعم عليهم بأن جعلهم ينطقون بالحروف التي هي مباني كتبه وكلامه وأسمائه فهذا قد أصاب؛ فالإنسان وجميع ما يقوم به من الأصوات والحركات وغيرها مخلوق كائن بعد أن لم يكن، والرب تعالى بما يقوم به من صفاته وكلماته وأفعاله غير مخلوق، والعباد إذا قرؤوا كلامه فإن كلامه الذي يقرؤونه هو كلامه لا كلام غيره، وكلامه الذي تكلم به لا يكون مخلوقاً، وكان ما يقرؤون به كلامه من حركاتهم وأصواتهم مخلوقاً، وكذلك ما يكتب في المصاحف من كلامه فهو كلامه مكتوباً في المصاحف، وكلامه غير مخلوق، والمداد الذي يكتب به كلامه وغير كلامه مخلوق".[١]

وقال كذلك: " الصفة تتبع الموصوف، فإن كان الموصوف هو الخالق فصفاته غير مخلوقة، وإن كان الموصوف هو العبد المخلوق، فصفاته مخلوقة، ثم إذا قرأ بأم القرآن وغيرها من كلام الله فالقرآن في نفسه كلام الله غير مخلوق، وإن كان حركات العباد وأصواتهم مخلوقة".[٢]

---

[١] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٣-٥٥). بتصرف يسير.

[٢] المرجع السابق، (١٢/ ٦٦).

وقال كذلك: " وأما السلف فقالوا: لم يزل الله متكلما إذا شاء وأن الكلام صفة كمال ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم كما أن من يعلم ويقدر أكمل ممن لا يعلم ولا يقدر ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازما لذاته ليس له عليه قدرة ولا له فيه مشيئة والكمال إنما يكون بالصفات القائمة بالموصوف لا بالأمور المباينة له ولا يكون الموصوف متكلما عالما قادرا إلا بما يقوم به من الكلام والعلم والقدرة، وإذا كان كذلك فمن لم يزل موصوفا بصفات الكمال أكمل ممن حدثت له بعد أن لم يكن متصفا بها لو كان حدوثها ممكنا فكيف إذا كان ممتنعا؟ فتبين أن الرب لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال منعوتا بنعوت الجلال؛ ومن أجلها الكلام. فلم يزل متكلما إذا شاء ولا يزال كذلك وهو يتكلم إذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن العربي وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقا منفصلا عنه فلا تكون الحروف التي هي مباني أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة لأن الله تكلم بها".[١]

المطلب الثاني

أدلتهم النقلية والعقلية فيما ذهبوا إليه.

أولاً: الأدلة من القرآن.

١- الدليل الأول من قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ...} [الأعراف: ١٤٣] ووجه الدلالة ما قاله ابن عثيمين: " أفادت هذه الآية أن الكلام يتعلق بمشيئته، وذلك لأن الكلام صار حين المجيء، لا سابقاً عليه، فدل هذا على أن كلامه يتعلق بمشيئته".[٢]

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: " سمعت عبد الرحمن بن مهدي، يقول: من زعم أن الله، عز وجل لم يكلم موسى صلوات الله عليه يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه".[٣]

٢- الدليل الثاني: قوله تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: ١٦٤]

---

[١] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢- ٥٣).

[٢] ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية (١/ ٤٢١).

[٣] ابن أحمد، السنة (١/ ٢٨٠).

ووجه الدلالة ما قال يحيى بن أبي الخير العمراني:[١] " فأخبر الله تعالى أنه كلم موسى ﷺ، وأتى بالمصدر توكيداً ليدل أنه كلمه بغير رسول ولا ترجمان؛ لأن الإنسان إذا قال: ضربت زيداً جاز أن يكون ضربه بنفسه، وجاز أن يكون ضربه غيره بأمره له، فإذا قال: ضربت زيداً ضرباً، كان ذلك خبراً عن ضربه له بنفسه".[٢]

٣- قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ} [المائدة: ١١٦]

قال ابن عثيمين: " قلنا: إنه بحرف وصوت لا يشبه أصوات المخلوقين.

الدليل على هذا من الآية الكريمة {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ}، هذا حروف وبصوت؛ لأن عيسى يسمع ما قال، ولا يماثل أصوات المخلوقين؛ لأن الله قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١] ".[٣]

٤- صفة الكلام لله تعالى صفة كمال لهذا ذم الله آلهة المشركين فقال تعالى عن عبادة العجل لبني إسرائيل: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا } [طه: ٨٩]

وقال سبحانه وتعالى في سورة الأعراف: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ } [الأعراف: ١٤٨]

٥- ومن الأدلة الصريحة كذلك قوله تعالى: { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} [الكهف: ١٠٩]

٦- والكلام ينسب للمتكلم به لا لناقله ومن هذا قوله تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ } [التوبة: ٦]

٧- وقوله: {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً}. [مريم:٥٢].

---

[١] هو طاهر بن يحيى بن أبي الخير سالم، أبو الطيب العِمراني (٥١٨ – ٥٨٧ هـ): فقيه شافعيّ يماني. خلف أباه في العلم والقضاء. وجاور بمكة بعد فتنة انتشرت في مخاليف اليمن. فأقام سبع سنوات. وعاد إلى وطنه (سنة ٥٦٦) وولي قضاء ذي جبلة وأعمالها. وصنف (مقاصد اللمع) و (مناقب الشافعيّ وأحمد) و (معونة الطلاب) و (جلاء الفكر في الرد على نفاة القدر) وغلب عليه علم الكلام. وهو من مشايخ ابن سمرة صاحب الطبقات. الأعلام للزركلي (٣/ ٢٢٣).

[٢] العمراني، الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٢/ ٥٤٠).

[٣] ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية (١/ ٤١٩-٤٢٠).

ووجه الدلالة ما قاله ابن عثيمين في قوله تعالى: " {وَنَادَيْنَاهُ}: ضمير الفاعل يعود إلى الله، وضمير المفعول يعود إلى موسى؛ أي: نادى الله موسى. {نَجِيّاً}: حال، وهو فعيل بمعنى مفعول؛ أي: مناجي. والفرق بين المناداة والمناجاة أن المناداة تكون للبعيد، والمناجاة تكون للقريب وكلاهما كلام. وكون الله عز وجل يتكلم مناداة ومناجاة داخل في قول السلف: كيف شاء. فهذه الآية مما يدل على أن الله يتكلم كيف شاء مناداة كان الكلام أو مناجاة ".[1]

ثانياً: الأدلة من السنة النبوية.

١- قال رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، وَلاَ حِجَابٌ يَحْجُبُهُ»[2]

ودلالة الحديث واضحة يعبر عن نفسه.

٢- قول عائشة رضي الله عنها وهي تقص قصة تبرئتها، حيث قالت رضي الله عنها: " وَلَكِنِّي وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ فِي بَرَاءَتِي وَحْيًا يُتْلَى، وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا".[3]

وجه الدلالة: كونها فرقت بين الرؤية وبين الكلام وفرحت بذلك فهذا يدل على أن الكلام يختلف عن مجرد البلاغ بأي وسيلة أخرى.

٣- وقول النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يلقى العبد يوم القيامة فيقول له: " أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي".[4]

---

[1] المرجع السابق، (١/ ٤٢٢)

[2] [البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد/ بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٣]، ٩/ ١٣٢: رقم الحديث ٧٤٤٣].

[3] [البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد/ بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ} [الفتح: ١٥]، ٩/ ١٤٤: رقم الحديث ٧٥٠٠].

[4] [مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق / سرده تحت الكتاب مباشرة دون ذكر باب له، ٤/ ٢٢٧٩: رقم الحديث ٢٩٦٨].

ووجه الدلالة واضح في قول النبي صلى الله عليه وسلم (فيقول له) فالضمير عائد على الله لا على غيره، ووقوله (أفظننت)؟ فالتاء تاء الفاعل أي هو المتكلم على الحقيقة، والضمير كذلك في (ملاقي) فلو كان غير الله تكلم أو خلقه في غيره لما كان قال ملاقي وإلا سيكون هو المتكلم لا الله تعالى.

٤- وحديث النبي صلى الله عليه وسلم عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوِّذُ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: " إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ "[١]

ووجه الدلالة أن الاستعاذة بالمخلوق شرك وحاشى للأنبياء أن يفعلوا ذلك، فيقتضي هذا أن صفة الكلام هي صفة لله تعالى والاتفاق قائمة على السؤال والتوسل بصفات الله تعالى.

٥- ذكر البخاري في أحد الأبواب عَنْ جَابِرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُنَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " يَحْشُرُ اللَّهُ العِبَادَ، فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ".[٢]

فالحديث يدل على صفة الحرف والصوت في كلامه، وقوله أنا الملك أنا الديان، يدل على أنه هو المتكلم حقيقة؛ إذ لو خلقه في غيره لكان ذلك نقصاً بأن يتكلم غيرك في حضرتك عنك، وهذا لا يتصور إلا فيما لا يستطيع الكلام بسبب آفة وهذا محال على الله تعالى فلله المثل الأعلى سبحانه وتعالى.

ثالثاً: الأدلة العقلية.

١- قال ابن تيمية: "من جعل كلامه مخلوقا لزمه أن يقول المخلوق هو القائل لموسى: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: ١٤] وهذا ممتنع لا يجوز أن يكون هذا كلاما إلا لرب العالمين وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن والتوراة وغير ذلك من الكتب بمعانيها وألفاظها المنتظمة من حروفها لم يكن شيء من ذلك مخلوقا؛ بل كان ذلك كلاما لرب العالمين... ".[٣]

---

[١] [البخاري، صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء/ باب، ٤/ ١٤٧: رقم الحديث ٣٣٧١].

[٢] المرجع السابق، (٩/ ١٤١)

[٣] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٢/ ٤١).

٢- الكلام صفة كمال ونفيها نفي لهذا الكمال، فمن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم كما أن من يعلم ويقدر أكمل ممن لا يعلم ولا يقدر والذي يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته وقدرته وأكمل ممن تكلم بغير مشيئته وقدرته إن كان ذلك معقولا.[١]

٣- انكار صفة الكلام لله ﷻ هو انكار للرسالة والرسل؛ لأن حقيقتها تبليغ كلام الله ﷻ الذي تكلم به إلى عباده، فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة..."[٢]

٤- وقال ابن القيم رحمه الله تعالى أن الله " جعل نفي صفات الكلام موجبا لبطلان الإلهية، وهذا أمر معقول بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية: أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلها، ولا مدبرا، ولا ربّا، بل هو مذموم معيب ناقص، ليس له الحمد لا في الأولى، ولا في الآخرة، وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال، ونعوت الجلال، التي لأجلها استحق الحمد؛ ولهذا سمي السلف كتبهم التي صنفوها في السنة وإثبات صفات الرب وعلوه على خلقه، وكلامه وتكليمه: توحيدا، لأن نفي ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع، وجحد له، وإنما توحيده: إثبات صفات كماله، وتنزيهه عن الشبيه والنقائص".[٣]

وقال كذلك : " والمحمود لا يحمد على العدم والسكوت البتة، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لا حمد فيه ولا كمال"[٤].

---

[١] انظر: المرجع السابق، (٦/ ٢٩٤).

[٢] انظر: ابن القيم، التفسير القيم (ص: ٣٠).

[٣] المرجع السابق، نفس الصفحة.

[٤] المرجع نفسه، ص: ٣١.

المبحث الثاني

حقيقة قول المعتزلة في صفة الكلام لله تعالى وأدلتهم على ذلك.

المطلب الأول

حقيقة قول المعتزلة في صفة الكلام لله تعالى.

حقيقة قول المعتزلة في صفة الكلام لله تعالى هو: أن كلام الله مخلوق خلقه في غيره، وليس هو بمتكلم ولا هي صفة قائمة به ومعنى أنه متكلم عندهم القدرة على خلق الكلام في غيره ويكون حرف وصوت، وقالوا هو عرض يخلقه الله في الأجسام، ومذهبهم في القرآن أنه مخلوق محدث، وكذلك سائر كلامه وما يتصل به.[١]

وهذا ما عبر عنه عبد الجبار الهمداني فقال: " طريق إثباته تعالى متكلماً هو العلم بوجود الكلام من جهته لا غير، كما تقول في كونه محسنا أو رازقا أو مميتا، إلى ما شاكله من الأوصاف المشتقة من الفعل"[٢]

وقال كذلك: " اختلف الناس في ذلك – أي في الكلام في القرآن وسائر كلام الله تعالى– والذي يذهب إليه شيوخنا: أن كلامه عز وجل من جنس الكلام المعقول في الشاهد، وهو حروف منظومة وأصوات مقطعة، وهو عرض يخلقه الله تعالى في الأجسام على وجه يسمع، ويفهم معناه...، ولا يصح عندهم – أي شيوخه– إثبات كلام قديم مخالف لكلامنا، كما لا يصح اثبات كلام محدث مخالف لهذا المعقول أيضا، على ما يقوله بعضهم من أن الكلام قائم بنفسه... ولا خلاف بين جميع أهل العدل في أن القرآن مخلوق محدث مفعول؛ لم يكن ثم كان، وأنه غير الله عز وجل، وأنه أحدثه بحسب مصالح العباد، وهو قادر على أمثاله، وأنه يوصف بأنه مخبر به وقائل وآمر وأنه من حيث فعله، وكلهم يقول: إنه عز وجل متكلم به"[٣]

قوله: (وأنه من حيث فعله)، فيدل على أنهم جعلوا أفعال الله كلها مخلوقة ولم يفرقوا بين فعله الذي هو صفته وبين مفعوله الذي هو خلقه.

---

[١] انظر: الهمداني، المغني في أبواب التوحيد والعدل (٢٠٨/٧).

[٢] المرجع السابق، ص٥٨.

[٣] المرجع نفسه، ص٣.

وقال كذلك: " الله سبحانه متكلم، وأنه ليس متكلم لنفسه، ولا بكلام قديم وأنه متكلم بكلام محدث، وأن طريق اثباته متكلما هو اثبات كلامه حادثا من جهته"[١]

وقال كذلك أن الكلام والصوت جنسا واحدا وعقب بعدها بقوله: " ولم نقل: إن الكلام هو الصوت مطلقا...، وإنما قلنا: إنها أصوات مقطعة، فمتى وجد على هذا الوجه كان كلاما، ومتى لم يوجد كذلك لم يكن كلاما، ولا يوجب ذلك كونه معنى سوى الصوت".[٢]

وقالوا الكلام لابد له من محل يتولد عنه وهو اعتماد الجسم على الجسم ومصاكّته له.[٣]

فحقيقة الكلام عندهم هي الأصوات المسموعة والحروف المقطعة.[٤]

لهذا قال الهمداني: " المتكلم هو فاعل الكلام".[٥]

فهو ينفي بهذه العبارة أن يكون الكلام صفة للمتكلم، ويقال له أن المتكلم ما تكلم إلا لما قامت به هذه الصفة وانتفاء الكلام انتفاء هذه الصفة، وقولك فاعل للكلام فهذا لفظ مجمل لا طائل من ورائه إلا التشويش على الحق، وفي مثل هذه الألفاظ يسأل ماذا تعني بأن المتكلم هو فاعل الكلام؟

جوابهم هو ما جاء عن الزمخشري في تفسير قوله تعالى: { وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: ١٤٣] حيث قال كلمه: " من غير واسطة كما يكلم الملك، وتكليمه: أن يخلق الكلام منطوقا به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطا في اللوح...".[٦]

وقرر كذلك في تفسيره أن الله خلق الكلام في الشجرة فاستدل بآثار لا أصل لها وإن صحت لا تدل على مذهبه، والتي منها ما ذكره في تفسير قوله تعالى: { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} [طه: ١٢] عن سيدنا موسي عليه السلام أنه قال: " أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمعه من جميع جهاتي الست، وأسمعه بجميع أعضائي، وروى أنه حين انتهى رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء تتقد، وسمع تسبيح الملائكة، ورأى نورا عظيما فخاف

---

[١] المرجع نفسه، ص٥.

[٢] المرجع نفسه، ص٢٢.

[٣] انظر: المرجع نفسه، ص٢٦.

[٤] انظر: الهمداني، شرح الاصول الخمسة (ص: ٥٢٨).

[٥] المرجع السابق، ص٥٣٥.

[٦] الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ١٥١– ١٥٢).

وبهت، فألقيت عليه السكينة ثم نودي، وكانت الشجرة عوسجة. وروى: كلما دنا أو بعد لم يختلف ما كان يسمع من الصوت"[١].

وقال في موضع أخر: " قلت: بأن يخلق الله – أي الجبال التي تسبح– فيها الكلام كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى"[٢]

وقال عبد الجبار أن كلام الله يعلم بطريقين وهما: " أن يكون واقعا على وجه لا يضح وقوعه على ذلك الوجه من القادرين بالقدرة، كأن يوجد في حصاة أو شجرة أو حجر أو غير ذلك، والثاني: كأن يخبرنا نبي صادق، وبهذه الطريقة الأخيرة علمنا أن القرآن كلام الله تعالى".[٣]

ويلزم من كلامه هذا أن الشجرة إله؛ لأن الكلام ينسب للمتكلم فإن قيل الشجرة تنقل كلام الله الذي خلقه فهذا يلزم منه أن الله عاجز عن الكلام، ولكنه ليس بعاجز عن الخلق والأمة مجمعة عن تنزيه الله عن العجز، وإن قيل هو مجرد نقل لكلام الله تعالى، يقال لهم: بهذا يلزم منه أنكم تقولون بأن الله متكلم حقيقة والشجرة تنقل كلامه كما جبريل نقل القرآن عنه وهذا لا تقولون به، والآية واضحة الدلالة خطاب مباشر من الله تعالى { إني أنا ربك}. فنعود للازم الأول وهو أن الشجرة إله على قولكم، وهذا أنتم لا تقولون به فيكون المتكلم هو الله على الحقيقة.

ومثل هذا الرد جاء في العواصم " الكلام الذي سَمِعَه موسى هو كلام الله على الحقيقة لا كلام الشجرة، فإنه لو كان مخلوقاً في الشجرة، كان كلام الشجرة على الحقيقة، وإنْ كان خلقاً لله، كما أنَّ الأعضاء لمَّا أنطقها الله يوم القيامة بدليلِ قولها: {أنطَقَنَا اللهُ الذي أنْطَقَ كُلَّ شيءٍ} [فصلت: ٢١] كان ذلك كلامَها لا كلام الله، فلذلك استشهدَها الله، ونسبَ الشهادة إليها، وقال: {شَهِدَ عَلَيْهِم سمعُهُم وأبصَارُهُم} [فصلت: ٢٠]."[٤]

وخطأهم في ذلك أنهم قالوا: كلامه فعله وفعله مخلوق فكلامه مخلوق، والمتكلم عندهم هو فاعل الكلام أي خالقه أو موجده لا أن الكلام صفة له، فهم لم يفرقوا بين الفعل والمفعول، وهذا ما قرره القاضي عبد الجبار عن شيخه أبي هاشم

---

[١] المرجع السابق (٣/ ٥٤).

[٢] المرجع نفسه، ص١٢٩.

[٣] الهمداني، شرح الأصول الخمسة (ص: ٥٣٩).

[٤] ابن الوزير، العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (٤/ ٣٥٨).

فقال: " إن شيخنا أبا هاشم جوز أن يخلق الإنسان فعل غيره، ويوصف بأنه خالق لفعل غيره...؛ لأنه وإن كان من فعل الله سبحانه، فالمقدر له يوصف بأنه خالق له".[١]

والحق أنه فعل الله صفة له سبحانه وتعالى وكلامه من أفعاله، ومفعوله هو مخلوقة ومثال على ذلك في قوله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [البقرة: ١١٧] فالكن من كلامه وهي غير مخلوقة والذي كان بالكلمة مخلوقة فكن فعل وما كان مفعول.

ومثال أخر على ذلك الخلق صفة له سبحانه وتعالى وعندما نقول يخلق فهذا يعني: أنها صفة فعلية وهي الخلق، وأما المفعول فهو المخلوق ففعل الله غير مفعوله وفعله صفة له سبحانه وتعالى وهي قائمة به وكلامه فعله لا مفعوله.

وبيّن هذا الإمام البخاري رحمه الله تعالى فقال: " وإنما هو الفاعل والفعل والمفعول، فالفعل صفة والمفعول غيره، وبيان ذلك في قوله تعالى: {مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ} [الكهف: ٥١] ولم يرد بخلق السموات نفسها وقد ميز فعل السموات من السموات وكذلك فعل جملة الخلق، وقوله: {ولا خلق أنفسهم}، وقد ميز الفعل والنفس، ولم يصر فعله خلقا، وأما الوصف من الصفة فالوصف إنما هو قول القائل حيث يقول: هذا رجل طويل، وثقيل، وجميل، وحديد، فالطول، والجمال، والحدة، والثقل إنما هو صفة الرجل، وقول القائل وصف، وكذلك إذا قال: الله رحيم، والله عليم، والله قدير، فقول القائل وصف، وهو عبادة، والرحمة والعلم والقدرة والكبرياء والقوة كل هذا صفاته"[٢]

وقال ابن تيمية: " والقول بأن الخلق غير المخلوق وأنه فعل يقوم بالرب هو قول أكثر المسلمين: هو قول الحنفية وأكثر الحنبلية وإليه رجع القاضي أبو يعلى أخيرا وهو الذي حكاه البغوي عن أهل السنة وهو الذي ذكره أبو بكر الكلاباذي عن الصوفية وذكره في كتاب التعرف لمذهب التصوف وهو الذي ذكره البخاري في كتاب خلق أفعال العباد إجماعاً من العلماء، وهو الذي ذكره ابن عبد البر وغيره عن أهل السنة".[٣]

---

[١] الهمداني، المغني في أبواب التوحيد والعدل (٧/ ٢٢٠).

[٢] البخاري، خلق أفعال العباد، (ص: ١١٤).

[٣] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٦/ ٢٩٨).

وقال كذلك: " وأما الجهمية والمعتزلة، فيقولون: ليس له كلام قائم بذاته؛ بل كلامه منفصل عنه مخلوق عنه، والمعتزلة يطلقون القول: بأنه يتكلم بمشيئته؛ ولكن مرادهم بذلك أنه يخلق كلاما منفصلا عنه... ويقولون: هو صفة فعل؛ لكن الفعل عندهم: هو المفعول المخلوق بمشيئته وقدرته"[١].

و "بنوا هذا على أصلهم: أن الرب لا يقوم به صفة؛ لأن ذلك بزعمهم يستلزم التجسيم والتشبيه الممتنع؛ إذ الصفة عرض والعرض لا يقوم إلا بجسم".[٢]

المطلب الثاني

الأدلة النقلية والعقلية للمعتزلة في نفي صفة الكلام والقول بخلق القرآن، ومناقشتها.

أولاً: أدلتهم النقلية.

١- استدلوا بقوله تعالى: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [الأنبياء: ٢].

ووجه الدلالة: أن الذكر هو القرآن لقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر: ٩]، ووصفه بأنه محدث وكل محدث مخلوق، ووصفه بأنه منزل والمنزل لا يكون إلا محدثا، وقالوا كذلك: في قوله { وإنا له لحافظون} لو كان قديما ما احتاج لحافظ يحفظه.[٣]

وقال ابن عادل الحنبلي رحمه الله تعالى: "استدلت المعتزلة بهذه الآية على حدوث القرآن، فقالوا: القرآن ذكر، والذكر محدث، فالقرآن محدث"[٤]

الرد على هذه الشبهة:

يظهر من استدلالهم أنهم اعتقدوا ثم استدلوا ووجهوا الآية القرآنية حسب مذهبهم الباطل، وهذا القول مبني عندهم على أن كل حادث مخلوق والخالق لا تقوم به المحدثات وإلا لم يكن واجبا بذاته وأصبح عرضا، والعرض لا يقوم إلا بجسم، وهذه الشبهة تجمع أكثر من شبهة في طياتها، لهذا الجواب عليها يطول، ونبدأ بالمعنى الصحيح لهذه الآية:

---

[١] المرجع السابق، ص٢١٩. بتصرف يسير.

[٢] المرجع نفسه، ص٢٢٠.

[٣] انظر: الهمداني، شرح الاصول الخمسة (ص: ٥٣١ – ٥٣٢).

[٤] ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب (١٣/ ٤٤٤).

المعنى الصحيح لهذه الآية أنه محدث أي جديد انزاله على النبي ﷺ، وبهذا قال ابن كثير رحمه الله تعالى: " فقال ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث أي جديد إنزاله إلا استمعوه وهم يلعبون، واستشهد بأثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: " يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الكِتَابِ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْدَثُ الأَخْبَارِ بِاللَّهِ، تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الكِتَابَ..."[١]

وقال مجير الدين بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي: "{مُحْدَثٍ} أي: محدث التنزيل، لا نفس القرآن؛ أي: ما يأتيهم شيء من القرآن".[٢]

وهذا ما عبر عنه ابن تيمية فقال : " اعلم أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث؛ لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره كما لو قال: ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته وما آكل إلا طعاما حلالا ونحو ذلك ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ولكنه الذي أنزل جديدا فإن الله كان ينزل القرآن شيئا بعد شيء فالمنزل أولا هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخرا. وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب"[٣]

ورد هذه الشبهة الإمام أحمد فقال: " لقد شبه على الناس بهذا، وهي آية من المتشابه ... اعلم أن الشيئين إذا اجتمعا في اسم يجمعهما فكان أحدهما أعلى من الآخر، ثم جرى عليهما اسم مدح، فكان أعلاهما أولى بالمدح وأغلب عليه، وإن جرى عليه اسم ذم فأدناهما أولى به، ومن ذلك قول الله تعالى في كتابه: {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحج: ٦٥] {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} [الإنسان: ٦] يعني الأبرار دون الفجار، فإذا اجتمعوا في اسم الإنسان، واسم العباد، فالمعنى في قوله الله جل ثناؤه: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} [الإنسان: ٦] يعني الأبرار دون الفجار، لقوله إذا انفرد الأبرار: {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [الانفطار: ١٣] .

وإذا انفرد الفجار: {وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [الانفطار: ١٤] .

---

[١] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم= تفسير ابن كثير (٥/ ٢٩١). والأثر أخرجه البخاري في صحيحه [البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشهادات/ باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها، ٣/ ١٨١: رقم الحديث ٢٦٨٥].

[٢] العليمي، فتح الرحمن في تفسير القرآن (٤/ ٣٤١).

[٣] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢٢).

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحج: ٦٥] فالمؤمن أولى به وإن اجتمعا في اسم الناس؛ لأن المؤمن إذا انفرد أعطى المدحة لقوله: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣] ... فلما قال الله تعالى: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ} [الأنبياء: ٢] .

فجمع بين ذكرين: ذكر الله، وذكر نبيه، فأما ذكر الله إذا انفرد لم يجرِ عليه اسم الحدث، ألم تسمع إلى قوله: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} [العنكبوت: ٤٥] . {وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ} [الأنبياء: ٥٠] .

وإذا انفرد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فإنه جرى عليه اسم الحدث، ألم تسمع إلى قوله: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦] .

فذكر النبي صلى الله عليه وسلم له عمل، والله له خالق محدث، والدلالة على أنه جمع بين ذكرين لقوله: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ} [الأنبياء: ٢] . فأوقع عليه الحدث عنه إتيانه إيانا، وأنت تعلم أنه لا يأتينا بالأنباء إلا مبلغ ومذكر، وقال الله: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: ٥٥] . {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى} [الأعلى: ٩] ، {إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ} [الغاشية: ٢١] .

فلما اجتمعوا في اسم الذكر، جرى عليهم اسم الحدث، وذكر النبي إذا انفرد وقع عليه اسم الخلق وكان أولى بالحدث من ذكر الله الذي إذا انفرد لم يقع عليه اسم خلق، ولا حدث، فوجدنا دلالة من قول الله: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ} [الأنبياء: ٢] إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يعلم فعلمه الله، فلما علمه الله كان ذلك محدثًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم".[١]

ومعنى هذا الكلام أن الآية تحتمل معنيين:

الأول: معنى تبليغ النبي لكلام ربه فيكون جديدا على أسماعنا وفعل العبد مخلوق والكلام الذي يُسمِعه النبي لأصحابه ليس بمخلوق(لفظه ومعناه).

والمعنى الثاني: هو أن معنى محدث هنا ليس بمعنى مخلوق في حق الله، ومن هذا قال الإمام البغوي في معنى قوله تعالى: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ} [الأنبياء: ٢] " ليس ذلك حدث الخلق، إنما هو حدوث أمر، كما قال الله

---

[١] ابن حنبل، الرد على الجهمية والزنادقة (ص: ١٢١- ١٢٤).

عز وجل: {لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا } [الطلاق: ١]"[١] وبيان ذلك من خلال الرد على النقطة الثانية في هذه الشبهة وهي قولهم: أنه وصفه بأنه محدث، والمحدث عندهم لا يكون إلا مخلوقا.

الجواب على ذلك:

بين الإمام أحمد في بداية الحديث أن هذه الآية من المتشابهات وما كانت كذلك إلا لأن فيها لفظ الحدوث فهو من الألفاظ المجملة التي تحمل أكثر من معنى وهذا ما بينه ابن تيمية فقال: " لفظ الحوادث مجمل يراد به: أنه لا يقوم به جنس له نوع لم يحصل منه شيء قبل ذلك، ويراد به أنه لا يقوم به لا نوع ولا فرد من أفراد الحوادث فإذا أريد الثاني فالسلف وأئمة السنة والحديث وكثير من طوائف الكلام على خلافه".[٢]

والمعنى الأول جائز في حق الله ومعناه أن جنس الصفة موجودة قديمة وحدوث آحادها لا يعنى عدم جنسها وأنها وجدت بعد وجود آحادها، بل يقال الكلام صفة قائمة في الله متعلقة بمشيئته.[٣] وما كان متعلق بالمشيئة فهو حادث الآحاد فيكون صفة فعلية، وما كان قائم بذاته فهو صفة ذاتية، ومن هذا قال السلف أن صفة الكلام صفة ذاتية فعلية، وهذا معنى قولهم لم يزل متكلما وقتما شاء، فلم يزل متكلما هذا يعنى أنها صفة ذاتية ويعنى أن الصفة قديمة النوع أو الجنس وقولهم وقتما شاء فهذا يعنى أنها صفة فعلية حادثة الآحاد، ولا يقال أنها كانت بعد أن لم تكن؛ لأن ما أصله موجود لا يقال أنه أصبح ممكنا بعد أن كان معدوماً.

وقد بوب الإمام البخاري رحمه الله تعالى بابا ذكر فيه قول النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّ مِمَّا أَحْدَثَ: أَنْ لاَ تَكَلَّمُوا فِي الصَّلاَةِ "[٤] وقال البخاري: " وَأَنَّ حَدَثَهُ لاَ يُشْبِهُ حَدَثَ المَخْلُوقِينَ".[٥]

وقال سفيان بن عيينة: " بين الله الخلق من الأمر، فقال تعالى: { أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف: ٥٤]."[١] ومعنى هذا أن لو كان الخلق والأمر سواء لقال له الخلق ولم يقل الأمر، فالخلق خلقه وهم

---

[١] البغوي، شرح السنة (١/ ١٨٢-١٨٣).

[٢] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٦/ ٣٢٤).

[٣] انظر: ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية (١/ ٤٢٣).

[٤] [بن أبي داود، سنن أبي داود، باب تفريع أبواب الركوع والسجود/ باب رد السلام في الصلاة، ١/ ٢٤٣ رقم الحديث ٩٢٤]. وقال الألباني: حسن صحيح.

[٥] البخاري، صحيح البخاري (٩/ ١٥٣).

مخلوقون، والأمر أمره تكلم به غير مخلوق، وفعل العبد للأمر مخلوق لقوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦].

وقال ابن تيمية: " ولفظ الإحداث يريدون به ابتداء ما لم يكن قبل ذلك. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الله يحدث من أمره ما شاء " وقول الله تعالى: {ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث} . ولا يسمون مخلوقا إلا ما كان بائنا عنه كقوله: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي } [المائدة: ١١٠]".[٢]

والرد على قولهم: لو كان قديماً ما احتاج لحافظ يحفظه.

بداية لم يقل أحد من السلف أن القرآن قديم وقد بينا هذا الكلام في تقرير عقيدة السلف في كلامه، ومعنى الحفظ هنا ألا يحرف ومن ثم ينسب إليه كما حصل في التوراة والإنجيل، وقد بيّن هذا الطبري فقال: " وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل مًا ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه".[٣] وهذه خصوصية للقرآن.

وإذا قيل دام كلام الله يحرف فهذا يعنى أنه مخلوق، يرد عليهم من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول هو: أن أصل الكلام موجود ولم يحرف وهو الذي تكلم به الله تعالى، وأكثر ما يمكن للبشر فعله هو الكذب على الله تعالى بقول باطل ونسبة هذا القول له تعالى، ومثال ذلك أن يرسل ملك رسالة لرعاياه فتقع هذه الرسالة في يد عدو فيغير فيها فهل يعنى هذا أنه قال هذا الذي غيره؟ وهل يعنى أنه أبطل الكلام الذي قاله الملك؟!.

والثانية: أن ذلك من مقتضيات حكمته، فحكمته تقتضي حفظ كتابه أوامره نواهيه في أخر الزمان كون الرسالة عالمية لكل المكلفين في أخر الزمان.

الوجه الثالث: أن ذلك واقع بمشيئته تعالى، فهناك أمور تحصل في دار التكليف ولا يحبها الله وشاء أن تحصل كوننا في أرض تكليف، وهذا لا يعنى أن مشيئة البشر أغلب من مشيئة الله تعالى وأنه لا يقدر على أفعال العباد، إذ لو شاء الله أن يمنعهم عن الكذب عليه ونسبة كلام باطل له لمنعهم؛ لهذا شاء الله ذلك للقرآن دون غيره من كلامه أن يحفظه من تحريف المحرفين وبطلان البطالين، وبسط الكلام في مسألة المشيئة ومن فهمها فهم المقصد والله المستعان.

---

[١] البغوي، شرح السنة (١/ ١٨٣).

[٢] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٦/ ٣٢٩).

[٣] الطبري، تفسير الطبري = جامع البيان (١٧/ ٦٨).

٢- استدلوا بقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ} [النساء: ١٧١] .

ووجه الدلالة أن عيسى عليه السلام مخلوق، فيكون الكلام والقرآن مخلوق.

الرد على هذه الشبهة:

رد الإمام أحمد على هذه الشبهة فقال: " ...عيسى عليه السلام تجري عليه ألفاظ لا تجري على القرآن، لأنه يسميه مولودًا وطفلا وصبيًّا وغلامًا، يأكل ويشرب، وهو مخاطب بالأمر والنهي، يجري عليه اسم الخطاب والوعد والوعيد، ثم هو من ذرية نوح، ومن ذرية إبراهيم، ولا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى: هل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في عيسى؟ ولكن المعنى من قول الله جل ثناؤه: {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ} [النساء: ١٧١] .

فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: كن، فكان عيسى: بكن وليس عيسى هو الكُنُّ، ولَكِنْ بالكُنِّ كَانَ، فالكُنُّ من الله قول، وليس الكن مخلوقًا"[١]

٣- ومن شبههم في ذلك استدلالهم بقوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [الزخرف: ٣] فقالوا: جعلناه بمعنى خلقناه لقوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} [البقرة: ٢٢] بمعنى خلق.

الرد على الشبهة:

أجاب على هذه الشبهة ابن تيمية رحمه الله ﷺ فقال: " لم يقل جعلناه فقط حتى يظن أنه بمعنى خلقناه؛ ولكن قال: {جعلناه قرآنا عربيا} أي صيرناه عربيا لأنه قد كان قادرا على أن ينزله عجميا فلما أنزله عربيا كان قد جعله عربيا دون عجمي"[٢].

وهذا ما أكده الباقلاني وإن كان من جملة المتكلمين ولكن كلامه هنا حق " قيل لهم معنى ذلك إنا جعلنا العبارة عنه بلسان العرب وأفهمنا أحكامه والمراد به باللسان العربي وسميناه عربيا لأن الجعل قد يكون بمعنى التسمية والحكم قال الله عز وجل: {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} [الحجر: ٩١] يعني سموه كذبا وحكموا عليه بذلك ولم يرد أنهم خلقوه وقال تعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} [الزخرف: ١٩] يعني سموهم بذلك وحكموا لهم به ولم يرد أنهم

---

[١] ابن حنبل، الرد على الجهمية والزنادقة (ص: ١٢٥- ١٢٦). وانظر: البخاري، خلق أفعال العباد (ص: ٤٤).

[٢] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢٢).

خلقوهم إناثا والجعل إذا عدي إلى مفعول واحد كان بمعنى الفعل لا محالة وإذا عدي إلى مفعولين صار بمعنى الحكم والتسمية في أكثر الاستعمال...وقوله {إنا جعلناه قرآنا عربيا} متعد إلى مفعولين فصار بمعنى الحكم والتسمية"[١]

٤- استدلوا بقوله: {قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي} [الأعراف: ١٤٤] والامتنان لا يقع إلا بالمحدث دون القديم.[٢]

الرد على الشبهة:

يقال لهم هذا تحكم منكم وقلب للحقائق؛ ذلك أنه لم يرد دليل على أن الامتنان لا يقع إلا بالمخلوق، وليس شرطاً أن يكون الامتنان في الأمور المخلوقة فقد يكون في غير ذلك ومعناه الانعام والاختصاص عن الغير بشيء دون غيره، ومثله قول الله تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٥٦] وقوله تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣] فهل يعنى هذا أن رحمته مخلوقة كونه خصص به قوما اتصفوا بصفات معينة.

٥- استدلالهم بحديث لم يصح وهو " إن الله خلق التوراة بيده" فقال الهمداني: " القرآن كالتوراة في هذا الباب، وإنما قال بيده تأكيدا...".[٣]

والرواية الصحيحة أنه كتب التوراة بيده وجاءت في مختصر العلو للعلي العظيم من حديث حكيم بن جابر قال: "أخبرت أن ربكم عز وجل لم يمس بيده إلا ثلاثة أشياء: عرش الجنة بيده، وخلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده".[٤]

وجاء في البخاري أنه سيدنا آدم قال لسيدنا موسى عليهما السلام: " يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلاَمِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ"،[٥] ويعضده قوله تعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٤٥].

---

[١] الباقلاني، تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل (ص: ٢٨٢) بتصرف يسير. وانظر نفس المضمون عن الإمام أحمد في كتاب الرد على الجهمية والزنادقة (ص: ١٠٣).

[٢] انظر: الهمداني، شرح الأصول الخمسة (ص ٥٥٠).

[٣] الهمداني، المغني في ابواب التوحيد والعدل (٢٢٣/٧).

[٤] الذهبي، مختصر العلو للعلي العظيم (ص: ١٢٩- ١٣٠). قال الألباني: أخرجه الآجري في "الشريعة" "ص٣٠٣" وإسناده صحيح، وقد أخرجه عبد الله في "السنة" "ص٦٨" نحوه، لكن ليس فيه ذكر المس وغرس الجنة، وصححه المؤلف أيضا في "الأربعين" "ق١٧٩/ ٢". ورواه بتمامه عن عكرمة وسنده ضعيف. وعن خالد بن معدان نحوه. وأخرج الدارمي "ص٣٥" عن ميسرة قال: فذكره مثله، ورجاله ثقات. وعن أنس عن كعب قال: فذكره. وسنده صحيح. وخرجه الآجري أيضا.

[٥] [البخاري: صحيح البخاري، كتاب القدر/ باب تحاج آدم وموسى عند الله، ١٢٦/٨: رقم الحديث ٦٦١٤].

وكتابة الله ليست مخلوقة؛ لأنها من فعله وفعله صفة له تعالى.[١]

ثانياً: الأدلة العقلية للمعتزلة في قولهم.

١- قالوا: " لو كان كلام الله تعالى قديما لوجب أن يكون مثلا لله تعالى؛ لأن القدم صفة من صفات النفس والاشتراك في صفة من صفات النفس يوجب التماثل، ولا مثل لله تعالى، وأيضا فلو كان قديماً، لوجب أن يكون عالماً لذاته، قادراً لذاته، كالقديم تعالى سواء؛ لما قد ذكرناه فيما قبل أن الاشتراك في صفة من صفات النفس يوجب الاشتراك في سائر صفات النفس ومعلوم خلافه، وأيضا فإن العدم مستحيل على القديم تعالى فلو كان الكلام قديما لما جاز أن يعدم"[٢]

وقالوا: أن القول في القرآن أنه غير مخلوق يوهم أنه يوجد قديم مع الله تعالى، وهذا ما دل عليه قول القاضي: " القول فيه بأنه غير مخلوق يوهم فيما أطلقتموه أنه مثبت له قديما مع الله سبحانه، وأنه ثنوي عادل عن التوحيد، فيجب أن يوصف بأنه مخلوق ليزول الإيهام، كما يجب وصفه بأنه محدث، وإنما يجب أن يجتنب الشيء للإيهام إذا أوهم الخطأ في الحقيقة".[٣]

وقالوا: القرآن يتقدم بعضه على بعض، وهذه ليست صفة القديم فالقديم هو ما لا يتقدمه غيره،.[٤]

الرد على الشبهة:

هذه الشبهة كلها تدندن حول مفهومين، وهما: **إذا أثبتنا لله كلاماً حقيقياً فلا بد أن يكون الكلام الذي تكلم به بعد الكلام الأول محدثاً بالنسبة للأول ولا يعتبر قديماً.**

يقال لهم في هذه أننا نسلم بهذا، ولكن لا نسلم بمعنى الحادث بأنه المخلوق ولا نقول أن نوعه حادثاً بل قديم النوع حادث الأفراد.

وأما المفهوم الثاني وهو: القول بقدم الكلام يعنى تعدد القدماء.

---

[١] انظر: السقاف، صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة (ص: ٢٨٩).
[٢] الهمداني، شرح الأصول الخمسة (ص: ٥٤٩-٥٥٠).
[٣] الهمداني، المغني في أبواب التوحيد والعدل (٢١٨/٧).
[٤] انظر: الهمداني، شرح الاصول الخمسة (ص:٥٣١ -٥٣٢).

هذه شبهة قديمة عمدوا بها إلى نفي الصفات، وهي أوهى من بيت العنكبوت؛ ويقال لهم لا يمكن أن تتعدد الذوات بتعدد الصفات، وإلا لكنت أنت تملك أكثر من ذات كونك متكلما وسميعا وبصيرا، ولله المثل الأعلى، وقد ذكر ابن تيمية أنهم قالوا: " إن زعمتم أن الله ونوره والله وقدرته والله وعظمته فقد قلتم بقول النصارى حين زعمتم أن الله لم يزل ونوره ولم يزل وقدرته.

قلنا– ابن تيمية– لا نقول إن الله لم يزل وقدرته ولا نقول ولم يزل ونوره، ولكن نقول لم يزل بقدرته ونوره، لا متى قدر ولا كيف قدر، فقالوا: لا تكونون موحدين أبدًا حتى تقولوا قد كان الله ولا شيء، فقلنا نحن نقول قد كان الله ولا شيء، ولكن إذا قلنا إن الله لم يزل بصفاته كلها أليس إنما نصف إلهًا واحدًا بجميع صفاته؟! وضربنا لهم مثلاً في ذلك فقلنا: أخبرونا عن هذه النخلة أليس لها جذع وكَرَب وليف وسَعَف وخُوص وجُمَّار، واسمها اسم شيء واحد، وسميت نخلة بجميع صفاتها، فكذلك الله وله المثل الأعلى بجميع صفاته إله واحد، لا نقول إنه قد كان في وقت من الأوقات ولا قدرة حتى خلق قدرته، والذي ليس له قدرة هو عاجز، ولا نقول قد كان في وقت من الأوقات ولا يعلم حتى خلق له علمًا، فعلم والذي لا يعلم هو جاهل، ولكن نقول لم يزل الله عالمًا قادرًا مالكًا لا متى ولا كيف..."[١]

فأهل السنة لا يقولون: لا يزال عالماً لذاته، قادراً لذاته كما تقولون أنتم، بل يقولون ما زال بصفاته ونقول ما زال بعلمه وبقدرته أي متصف بصفاته ومن صفاته أنه متكلم لهذا قال الطحاوي في عقيدته: " ما زال بصفاته قديما قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليا، كذلك لا يزال عليها أبديا"[٢]

وقولهم أن هذا يوهم أن القرآن قديم.

فأهل السنة لا يقولون أن القرآن قديم فهذا من جهلهم بمذهب أهل السنة وبجهلهم بهذه الصفة؛ فهم لم يفرقوا بين جنس الكلام وآحاده فجنسه قديم وآحاده حادث، وهذا ما بينه ابن تيمية فقال: " لم يفرق هؤلاء بين جنس الحروف وجنس الكلام وبين عين حروف قديمة أزلية، وهذا أيضا مما يقول جمهور العقلاء إنه معلوم الفساد بالضرورة– أي أن الحرف المعين قديم قول لم يقل به السلف–؛ فإن الحروف المتعاقبة شيئا بعد شيء يمتنع أن يكون كل منها قديما أزليا وإن كان جنسها قديما؛ لإمكان وجود كلمات لا نهاية لها وحروف متعاقبة لا نهاية لها، وامتناع كون كل منها قديما أزليا فإن المسبوق

---

[١] ابن تيمية، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ 96– ٩٧).

[٢] ابن أبي العز، شرح الطحاوية (ص: ١٢٤).

بغيره لا يكون أزليا... وقال كذلك: أن السلف قالوا: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق وقالوا لم يزل متكلما إذا شاء. فبينوا أن كلام الله قديم أي جنسه قديم لم يزل، ولم يقل أحد منهم إن نفس الكلام المعين قديم ولا قال أحد منهم القرآن قديم؛ بل قالوا: إنه كلام الله منزل غير مخلوق وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن بمشيئته كان القرآن كلامه وكان منزلا منه غير مخلوق، ولم يكن مع ذلك أزلياً قديماً بقدم الله، وإن كان الله لم يزل متكلماً إذا شاء فجنس كلامه قديم... وقال كذلك: الأئمة الأربعة وجمهور أصحابهم بريئون من ذلك– أي من قول الذي يقول بأن الكلمة قديمة العين–. ومن قال إن الحرف المعين أو الكلمة المعينة قديمة العين فقد ابتدع قولا باطلا في الشرع والعقل، ومن قال: إن جنس الحروف التي تكلم الله بها بالقرآن وغيره ليست مخلوقة وإن الكلام العربي الذي تكلم به ليس مخلوقا والحروف المنتظمة منه جزء منه ولازمة له وقد تكلم الله بها فلا تكون مخلوقة فقد أصاب".[١]

٢– ذكر الهمداني عن بعض مشايخه أن اثبات الكلام كصفة قائمة بذات الله تعالى يقتضي أن يكون حالا في الله ﷻ، والله يستحيل أن يكون محلا، لأن المحل متحيز، والمتحيز محدث، وقد ثبت قدمه.[٢]

الرد على الشبهة:

خلاصة هذه الشبهة نفيهم بأن يكون الله متكلماً؛ لأن الكلام لا يكون إلا محدثاً والله قديم منزه أن تقوم به الحوادث، وهذه الشبهة مبنية على مقدمتين ذكرهما ابن تيمية في معرض رده على سؤال سائل عن هذه الشبهة بالتحديد والمقدمتين هما: " لو قلت إنه كلمه– أي أن الله تعالى كلم موسى ﷺ – فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت والحرف والصوت محدث"[٣]

والمحدث لا يقوم بذاته، وقد تم تقرير أن الحدوث في حق الله يختلف عن الحدوث في المخلوقات وأما نفي حلول الحوادث فقد ذم السلف هذا اللفظ من أصله أن يستخدم في حق الله لأن فيه إجمال وهذا ما بينه ابن أبي العز الحنفي فقال: " وحلول الحوادث بالرب تعالى، المنفي في علم الكلام المذموم، لم يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنة، وفيه إجمال: فإن أريد بالنفي أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة لشيء من مخلوقاته المحدثة، أو لا يحدث له وصف

---

[١] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٢/ ٥١– ٥٥).

[٢] انظر: الهمداني، شرح الأصول الخمسة (ص ٥٣٩).

[٣] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢٦). ملاحظة: إن تكلمنا عن الحرف والصوت فهذا يعنى أننا نتكلم على آحاد كلامه لا نوعه.

متجدد لم يكن، فهذا نفي صحيح، وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية، من أنه لا يفعل ما يريد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته، فهذا نفي باطل".[١]

وأما مسألة التحيز فهذا اللفظ كذلك من الألفاظ المجملة[٢] وهو مبتدع، " والمراد به عند المتكلمين: هو الفراغ المتوهم الذي يشغله شيء ممتد كالجسم أو غير الممتد كالجوهر الفرد[٣]، وهو أعم من المكان عندهم، فإن المكان هو البعد الذي يشغله الجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوي".[٤]

ومسألة التحيز نظير مسألة قولهم أن اثبات الكلام يعنى اثبات الجسمية أو الآلة والتي قال فيها أبو سعيد الدارمي: " لا نشك أنه خرج من الله تبارك وتعالى دون من سواه. وذكر الجسم والفم واللسان خرافات وفضول مرفوعة عنا، لم نكلفه في ديننا، ولا يشك أحد أن الكلام يخرج من المتكلم".[٥] وكذلك نقول في مسألة التحيز.

وقال ابن تيمية عن مسألة التحيز: " يستفسر هذا القائل إذا قال: إن الله متحيز أو ليس بمتحيز فإن قال: أعني بقولي إنه متحيز أنه دخل في المخلوقات وإن المخلوقات قد حازته وأحاطت به فهذا باطل. وإن قال أعني به أنه منحاز عن المخلوقات مباين لها فهذا حق. وكذلك قوله: ليس بمتحيز إن أراد به أن المخلوق لا يحوز الخالق فقد أصاب وإن قال إن الخالق لا يباين المخلوق وينفصل عنه فقد أخطأ".[٦]

والخلاصة: بما أنه لفظ مجمل فلا يستخدم في هذا الموضع، سيما أنه ثبت أن صفة الكلام ليست مخلوقة فيقال هي صفة قائمة به، وما كان قائم به لا يقال عنه حال فيه أو متحيز والله أعلم.

---

[١] ابن أبي العز، شرح الطحاوية (ص: ١٢٥).

[٢] لفظ المركب والجسم والتحيز والجوهر والجهة والحيز والعرض، ونحو ذلك. فإن هذه الألفاظ لم تأت في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده أهل الاصطلاح، بل ولا في اللغة، بل هم يخصون بالتعبير بها عن معان لم يعبر غيرهم عنها بها، فتفسر تلك المعاني بعبارات أخر، وينظر ما دل عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل. انظر: المرجع السابق، ص٢٠٦.

[٣] الجوهر الفرد يسمى بالجوهر الهيولي أي أصل المادة وهو لا يتجزأ عندهم ويمثلون بأجزاء الجسم نفسه وبالحركة والزمان فإنها لا تقبل القسمة انظر: الرازي، معالم أصول الدين (ص: ٣٦) وقد أبطله ابن القيم في الشافية الكافية. انظر: ابن عيسى، توضيح المقاصد شرح الكافية الشافية (٢/ ١٨٤).

[٤] الخميس، شرح الرسالة التدمرية (ص: ٢٢٣). وقال الرازي المتحيز إما أن لا يكون قابلا للقسمة وهو الجوهر الفرد أو يكون قابلا للقسمة وهو الجسم والقائم بالنفس الذي لا يكون متحيزا ولا حال في المتحيز هو الجوهر الروحاني. الرازي، معالم أصول الدين (ص: ٣٣).

[٥] الدارمي، نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله ﷻ من التوحيد (٢/ ٨٩٧).

[٦] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٢/٥٢٥- ٥٢٦).

وأما قولهم: لو كلمه حقيقة لكان ذلك بحرف وصوت والصوت والحرف لا يكون إلا محدثا وبما أن المحدث لا يكون إلا متحيزا فإنه يمتنع أن يحل في ذات الله وما دام كذلك فهو خلقه في غيره وينسب الكلام له تشريفا.

قد تم مناقشتهم في معنى التحيز والحدوث ويبقى قولهم أن الكلام لا يكون إلا بصوت وحرف والصوت والحرف مخلوق.

والجواب عليهم: ما دمت اعترفتم أن الكلام لا يكون إلا بصوت وحرف فهذا حق، وأما كونه حادث فهذا كذلك حق من جهة أفراده وآحاده لا جنسه ونوعه، ولكن ليس بمعنى مخلوق، فهلا إذا أبطلنا قولكم أن الله يخلق كلامه في غيره فهذا يعنى التزامكم بأن كلام الله بحرف وصوت وهو حادث بالمعنى الذي قررناه ويكون ليس مخلوقا، وكونه ليس مخلوقا فهو صفة له؟!

الدليل على بطلان خلق كلامه في غيره اضافة إلى ما سبق تقريره من وجهين: وجه مجمل وهو في قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ " يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ "[١]

ووجه الدلالة ما قاله: " نعيم بن حماد يقال للجهمية أخبرونا عن قول الله تعالى بعد فناء خلقه لمن الملك اليوم فلا يجيبه أحد فيرد على نفسه لله الواحد القهار، وذلك بعد انقطاع ألفاظ خلقه بموتهم أفهذا مخلوق؟!".[٢]

والمعنى أين خلق كلامه في ذاك الوقت وقد فنيت الخلائق كلها، ومن ثم الحديث لا ينكر دلالته إلا مكابر فقد قال النبي أن الله يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض.

والوجه المفصل: وهو ما ذكره ابن تيمية في الرد على هذه الشبهة بعد أن ذكر مذاهب الناس في ردها وكلها لا تسلم من ضعف وانتقاد ما خلا الصنف الثالث وهو الحق، وهم الذين لم يمنعوا المقدمتين " ولكن استفسروهم وبينوا أن هذا لا يستلزم صحة قولكم بل قالوا: إن قلتم: إن الحرف والصوت محدث بمعنى أنه يجب أن يكون مخلوقا منه منفصلا عنه فهذا دليل على فساد قولكم وتناقضه، وهذا قول ممنوع لما سيأتي بيانه، وإن قلتم: بمعنى أنه لا يكون قديما فهو مسلم لكن هذه التسمية محدثة. وهؤلاء صنفان– أي الذين قالوا أنه محدثا– : صنف قالوا: إن المحدث هو المخلوق المنفصل عنه، فإذا قلنا: الحرف والصوت لا يكون إلا محدثا كان بمنزلة قولنا لا يكون إلا مخلوقا وحينئذ فيكون هذا المعتزلي

---

[١] [البخاري، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن/ بَابُ قَوْلِهِ: {وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}، ١٢٦/٦: رقم الحديث ٤٨١٢].

[٢] ابن حجر، فتح الباري (١٣/ ٣٦٨).

أبطل قوله بقوله؛ حيث زعم أنه يتكلم بحرف وصوت مخلوق ثم استدل على ذلك بما يقتضي أنه يتكلم لا يتكلم بكلام مخلوق فيه تلبيس[١]. ونحن لا نقول كلم موسى بكلام قديم ولا بكلام مخلوق بل هو سبحانه يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء... وما كان قائما بنفسه هو كلامه لا كلام غيره، والمخلوق لا يكون قائما بالخالق ولا يكون الرب محلا للمخلوقات بل هو سبحانه يقوم به ما شاء من كلماته وأفعاله وليس من ذلك شيء مخلوقا إنما المخلوق ما كان بائنا عنه، وكلام الله من الله ليس ببائن منه؛ ولهذا قال السلف: القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود فقالوا: منه بدأ أي هو المتكلم به لا أنه خلقه في بعض الأجسام المخلوقة، وهذا الجواب هو جواب أئمة أهل الحديث والتصوف والفقه وطوائف من أهل الكلام من أئمتهم: من الهشامية والكرامية وغيرهم. وأتباع الأئمة الأربعة: أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد".[٢]

٣- ذكر ابن تيمية أن من عمدة أدلتهم قولهم : " أن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث فما يقوم به الكلام باختياره أو بمشيئته ولم يزل كذلك يجب أن يكون حادثا.

وقال: فلزمهم نفي كلام الرب وفعله بل وتعطيل ذاته ثم آل الأمر إلى جعل المخلوق قديما وتعطيل صفات الرب القديمة؛ بل وذاته والله أعلم".[٣]

الرد على هذه الشبهة:

لابد بداية معرفة أن هذه الشبهة فرع عن الشبهة الماضية وكأنهم يقولون: لو سلمنا لكم أن كلام الله الذي تكلم به حادث وهو ليس مخلوق ولكنه حادث، ومن صفات المخلوق أنه تقوم به الحوادث.

يقال لهم: كونكم تقولون أنه ليس بمعنى مخلوق انتهى الخلاف؛ لأن ما يقوم بالمخلوق مخلوق، وما يقوم بالله صفاته ليست مخلوقة؛ لأن الله ليس محلا للمخلوقات ولا تحوزه ولا تحل به سبحانه وتعالى؛ لهذا لو كان كلام الله تعالى بعد أن لم يكن فكلامكم صحيح فالله لا زال بصفاته خالقا وقتما يشاء وكذلك متكلما وقتما يشاء.

---

[١] أي فيه تلبيس كونهم يقولون أنه متكلم بحرف وصوت مخلوق ثم يستدلون بآيات تدلل على أنه ليس مخلوق.

[٢] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٢/ ٥٢٣- ٥٣٠). بتصرف

[٣] المرجع السابق، (٦/ ٣١٣).

وأجاب على هذه الشبهة بالتحديد ابن أبي العز الحنفي فقال: "ولو صح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره، لصح أن يقال للبصير: أعمى، وللأعمى: بصير! لأن البصير قد قام وصف العمى بغيره، والأعمى قد قام وصف البصر بغيره! ولصح أن يوصف الله تعالى بالصفات التي خلقها في غيره، من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر ونحو ذلك.

وبمثل ذلك ألزم الإمام عبد العزيز المكي بشرا المريسي بين يدي المأمون، بعد أن تكلم معه ملتزما أن لا يخرج عن نص التنزيل، وألزمه الحجة، فقال بشر: يا أمير المؤمنين، ليدع مطالبتي بنص التنزيل، ويناظرني بغيره، فإن لم يدع قوله ويرجع عنه، ويقر بخلق القرآن الساعة وإلا فدمي حلال، قال عبد العزيز: تسألني أم أسألك؟ فقال بشر: اسأل أنت، وطمع في فقلت له: يلزمك واحدة من ثلاث لا بد منها: إما أن تقول: إن الله خلق القرآن، وهو عندي أنا كلامه في نفسه، أو خلقه قائما بذاته ونفسه، أو خلقه في غيره؟ قال: أقول: خلقه كما خلق الأشياء كلها. وحاد عن الجواب. فقال المأمون: اشرح أنت هذه المسألة، ودع بشرا فقد انقطع. فقال عبد العزيز: إن قال خلق كلامه في نفسه، فهذا محال؛ لأن الله لا يكون محلا للحوادث المخلوقة، ولا يكون فيه شيء مخلوق، وإن قال خلقه في غيره فيلزم في النظر والقياس أن كل كلام خلقه الله في غيره فهو كلامه، فهو محال أيضا؛ لأنه يلزم قائله أن يجعل كل كلام خلقه الله في غيره هو كلام الله! وإن قال خلقه قائما بنفسه وذاته، فهذا محال: لا يكون الكلام إلا من متكلم، كما لا تكون الإرادة إلا من مريد، ولا العلم إلا من عالم، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته، فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقا، علم أنه صفة لله".[١]

وأجاب عليها ابن تيمية بجواب من جاوبهم واستحسنه فقال: " لو كان مخلوقا لكان إما أن يخلقه في نفسه، أو في غيره أو لا في محل.

الأول يلزم أن يكون محلا للحوادث وهو باطل.

والثاني: –يخلقه في غيره– يلزم أن يكون صفة لذلك المحل الذي قامت به الصفة؛ لأن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل لا على غيره فإذا قام بمحل علم أو حياة أو قدرة أو كلام أو غير ذلك؛ كان ذلك المحل هو

---

[١] ابن أبي العز، شرح الطحاوية (ص: ١٧٢– ١٧٣).

الموصوف بأنه حي عالم قادر متكلم كما يوصف بأنه متحرك إذا قامت به الحركة أو أنه أسود وأبيض إذا قام به السواد والبياض ونحو ذلك.

والثالث: قيامه لا في محل فممتنع؛ لأنه صفة... وإن جمهور المعتزلة والجهمية اختاروا من هذه الأقسام أنه يخلقه في محل. وقالوا: إن الله لما كلم موسى خلق صوتا في الشجرة فكان ذلك الصوت المخلوق من الشجرة هو كلامه، وهذا مما كفر به أئمة السنة من قال بهذا وقالوا: هو يتضمن أن الشجرة هي التي قالت: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: ١٤] لأن الكلام كلام من قام به الكلام. هذا هو المعقول في نظر جميع الخلق لا سيما وقد قام الدليل على أن الله أنطق كل ناطق: كما أنطق الله الجلود يوم القيامة وقالوا: {أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [فصلت: ٢١] فيكون كل كلام في الوجود مخلوقا له في محل. فلو كان ما يخلقه في غيره كلاما للزم أن يكون كل كلام في الوجود – حتى الكفر والفسوق والكذب – كلاما له تعالى عن ذلك، وهذا لازم الجهمية المجبرة؛ فإنهم يقولون: إن الله خالق أفعال العباد وأقوالهم والعبد عندهم لا يفعل شيئا ولا قدرة له مؤثرة في الفعل؛ ولهذا قال بعض شيوخهم من القائلين بوحدة الوجود: وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه، وأما المعتزلة فلا يقولون: إن الله خالق أفعال العباد لكن الحجة تلزمهم بذلك... وقال: سليمان بن داود الهاشمي: من قال: إن القرآن مخلوق لزم أن يكون قول فرعون كلام الله؛ فإن الله خلق في فرعون قوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } [النازعات: ٢٤] وعندهم أن الله خلق في الشجرة: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: ١٤] فإذا كان كلامه لكونه خلقه فالآخر أيضا كلامه.

والأشعرية وغيرهم من أهل السنة أبطلوا قول المعتزلة والجهمية بأنه خلقه في غيره بأن قالوا: ما خلقه الله في غيره من الأعراض كان صفة لذلك وعاد حكمه على ذلك المحل لم يكن صفة لله كما تقدم. وهذه حجة جيدة مستقيمة ..."[١]

ومعنى هذا الكلام كون الله خلق كلاما في الشجرة وهو كلامه فكذلك خلقه في فرعون وإبليس فيكون كذلك كلامه والسؤال ما هي الميزة في كلام الله عن كلام فرعون؟!

ومن هذا قال ابن تيمية كذلك: " وإذا كان لا يجب فيما قام بذاته أن يكون مخلوقا فلو أحدثه في ذاته لم يلزم أن يكون مخلوقا؛ بل يمتنع أن يكون مخلوقا؛ لأن المخلوق هو ما له خلق قائم بذات الرب مباين للمخلوق وهو إذا تكلم به

---

[١] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٦/٣١٥- ٣١٧). بتصرف.

بمشيئته وقدرته كان الكلام اسما يتناول التكلم به ونفس الحروف وذلك التكلم حاصل بقدرته ومشيئته لم يحصل بخلق؛ فإن الخلق يحصل أيضا بقدرته ومشيئته وهو يخلق الأشياء بكلامه؛ فمحال أن يكون لكلامه خلق أقرب إليه من كلامه. وقد قيل: إن خلقه للأشياء هو نفس تكلمه بكن فيكون هذا هو الخلق والخلق لا يحصل بخلق بل المخلوق يحصل بالخلق؛ ومن الأشياء ما يخلقه مع تكلم بفعل يفعله أيضا؛ فقد تبين على كل تقدير أن كلامه إذا أحدثه في ذاته لم يكن مخلوقا من غير أن يلزم أنه لا تقوم به الحوادث".[١]

وعليه ما قام بذاته فهو صفة له لا يعني أنه مخلوق، ويعني أنه لم يزل متكلما بمشيئته.

٤- ويتفرع عن الشبهة الماضية فرع كذلك وهي: لو قلنا " لم يزل متكلما بمشيئته لزم وجود كلام لا ابتداء له وإذا لم يزل متكلما وجب أن لا يزال كذلك؛ فيكون متكلما بكلام لا نهاية له وذلك يستلزم وجود ما لا يتناهى من الحوادث فإن كل كلمة مسبوقة بأخرى فهي حادثة ووجود ما لا يتناهى محال".[٢]

معنى كلامهم أنه يلزمونا بأن كلام الله لا ابتداء له، وكونه لم يزل متكلما وجب أن يكون متكلما بكلام لا نهاية له، وهذا يستلزم وجود ما لا يتناهى من الحوادث.

وهذه اللوازم لازمة لنا ونلتزمها؛ لأننا لا نقول أن الله لم يكن يتكلم فأصبح متكلما بعد أن لم يكن ولكننا نقول: لم يزل متكلما إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء وهو مذهب السلف رحمهم الله تعالى.

وأما وجود ما لا يتناهى من الحوادث فهذا حق في أفعال الله تعالى؛ لهذا فأهل الجنة والنار مخلدون فيهما أبدا يحدث الله لهم كل يوم من النعيم الذي لا ينقطع.

قال ابن أبي العز الحنفي: " وأصل هذا الكلام من الجهمية، فإنهم قالوا: إن دوام الحوادث ممتنع، وإنه يجب أن يكون للحوادث مبدأ، لامتناع حوادث لا أول لها، فيمتنع أن يكون الباري عز وجل لم يزل فاعلا متكلما بمشيئة، بل يمتنع أن يكون قادرا على ذلك؛ لأن القدرة على الممتنع ممتنعة! وهذا فاسد، فإنه يدل على امتناع حدوث العالم وهو حادث، والحادث إذا حدث بعد أن لم يكن محدثا فلا بد أن يكون ممكنا، والإمكان ليس له وقت محدود، وما من وقت يقدر إلا

---

[١] المرجع السابق، ص٣٢٣.

[٢] المرجع نفسه، ص٢٩٩. وهذا الدليل يستدل به الأشاعرة على قدم صفة الكلام فينفون بذلك الحرف والصوت ويقولون أن كلامه نفسي فقط أنظر: الغزالي، قواعد العقائد (ص: ١٨٦).

والإمكان ثابت فيه، وليس لإمكان الفعل وجوازه وصحته مبدأ ينتهي إليه، فيجب أنه لم يزل الفعل ممكنا جائزا صحيحا، فيلزم أنه لم يزل الرب قادرا عليه، فيلزم جواز حوادث لا نهاية لأولها".[١]

لهذا قال ابن تيمية: " هذا الاستلزام حق وبذلك يقولون: إن كلمات الله لا نهاية لها كما قال تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا } [الكهف: ١٠٩]. وأما قولهم: وجود ما لا يتناهى من الحوادث محال، فهذا بناء على دليلهم الذي استدلوا به على حدوث العالم وحدوث الأجسام وهو أنها لا تخلو من الحوادث وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث وهذا الدليل باطل عقلا وشرعا وهو أصل الكلام الذي ذمه السلف والأئمة وهو أصل قول الجهمية نفاة الصفات...".[٢]

وبين الذهبي ذلك فقال: "...ما فرقوا بين ما لا يخلو عن نوع الحوادث وبين ما لا يخلو عن عين الحوادث فيقال لهم: فهذا الدليل الذي أثبتم به حدوث العالم هو يدل على امتناع حدوث العالم فكان ما ذكرتموه إنما يدل على نقيض ما قصدتموه وذلك لأن الحادث لا بد أن يكون ممكنا والممكن لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح تام والإمكان ليس له وقت محدود فما من وقت يقدر إلا والإمكان ثابت قبله فيجب أن الفعل لم يزل ممكنا جائزا فيلزم أنه لم يزل الرب تعالى قادرا عليه فيلزم جواز حوادث لا أول لها ولا نهاية".[٣]

وقال الطحاوي: " وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقت دون وقت، كما في حديث الشفاعة: (إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله)[٤]؛ لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن، ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلما بالأمس لا يقال: إنه حدث له الكلام، ولو كان غير متكلم؛ لأنه لآفة كالصغر، والخرس، ثم تكلم يقال: حدث له الكلام، فالساكت لغير آفة يسمى متكلما بالقوة، بمعنى أنه يتكلم إذا شاء، وفي حال تكلمه يسمى متكلما بالفعل، وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل، ولا يخرج عن كونه كاتبا في حال عدم مباشرته الكتابة".[٥]

---

[١] ابن أبي العز، شرح الطحاوية (ص: ١٢٨).

[٢] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٦/ ٢٩٩).

[٣] الذهبي، المنتقى من منهاج الاعتدال (ص: ٤٢).

[٤] انظر: [مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ١/ ١٨٤: رقم الحديث ١٩٤].

[٥] ابن أبي العز، شرح الطحاوية (ص: ١٢٤– ١٢٥).

وقال ابن تيمية أن "هذا الدليل إذا ميز بين حقه وباطله فإنه يدل على حدوث ما سوى الله – وعلى مذهب السلف – وكان غلطة منهم وقولهم: كل ما لا يخلو من الحوادث – أي من الممكنات المفتقرة – فهو حادث فأخذوا هذا قضية كلية وقاسوا فيها الخالق على المخلوق قياسا فاسدا... ومن هنا يظهر أيضا: أن ما عند المتفلسفة من الأدلة الصحيحة العقلية فإنما يدل على مذهب السلف أيضا؛ فإن عمدتهم في قدم العالم على أن الرب لم يزل فاعلا وأنه يمتنع أن يصير فاعلا بعد أن لم يكن وأن يصير الفعل ممكنا له بعد أن لم يكن وأنه يمتنع أن يصير قادرا بعد أن لم يكن وهذا وجميع ما احتجوا به إنما يدل على قدم نوع الفعل؛ لا يدل على قدم شيء من العالم لا فلك ولا غيره[١]. فإذا قيل: إنه لم يزل فاعلا بمشيئته وقدرته وإن الفعل من لوازم الحياة – كما قال ذلك من قاله من أئمة السنة – كان هذا قولا بموجب جميع أدلتهم الصحيحة العقلية وكان هذا موافقا لقول السلف: لم يزل متكلما إذا شاء. فلم يزل متكلما إذا شاء فاعلا لما يشاء. وجميع ما احتج به الكلابية والأشعرية والسالمية وغيرهم على قدم الكلام إنما يدل على أنه لم يزل متكلما إذا شاء لا يدل على قدم كلام بلا مشيئة ولا على قدم كلام معين بل على قدم نوع الكلام.

وجميع ما يحتج به الفلاسفة على قدم الفاعلية إنما يدل على أنه لم يزل فاعلا لما يشاء؛ لا يدل على قدم فعل معين ولا مفعول معين؛ لا الفلك ولا غيره. والغلط إنما نشأ بين الفريقين من اشتباه النوع الدائم بالعين المعينة ثم إن أولئك قالوا: يمتنع قدم نوع الحركة والفعل لامتناع حوادث لا أول لها؛ فأبطلوا كون الرب لم يزل متكلما بمشيئته ولم يزل فاعلا بمشيئته؛ بل يلزمهم أنه لم يكن قادرا على الفعل ثم صار قادرا ولم يكن أيضا قادرا على الكلام بمشيئته...".[٢]

٥- قولهم: "أخبرونا عن القرآن أهو الله أو غير الله؟

هذا السؤال من مغاليط المسائل التي يلزم الجهمية والمعتزلة الناس فيها، ويعكروا عليهم صفو الفطرة السليمة، وخلاصته إن قال القرآن هو الله يقول له الجهمي كفرت وإن قال هو غير الله يقول له صدقت فلماذا لا يكون غير الله مخلوق؟![٣]

---

[١] وخطأهم أنهم قالوا وجد الخلق مع الله لأن الله فاعل دائما، وهذا خطأ فإن المفعول لا يكون مع الفعل بل بعده، ويقصد ابن تيمية أن أدلتهم صحيحة في دوام أفعاله، ومدلولهم باطل في قولهم بقدم العالم.

[٢] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٦/٢٩٩- ٣٠١).

[٣] انظر: ابن حنبل، الرد على الجهمية والزنادقة (ص: ١٠٦).

فأجابهم الإمام أحمد على ذلك فقال: " فالجواب للجهمي إذا سأل فقال: أخبرونا عن القرآن: هو الله أو غير الله؟ قيل له: إن الله جل ثناؤه لم يقل في القرآن: إن القرآن أنا، ولم يقل: غيري، وقال هو كلامي فسميناه باسم سماه الله به. فقلنا: كلام الله، فمن سمى القرآن باسم سماه الله به كان من المهتدين، ومن سماه باسم غيره كان من الضالين، وقد فصل الله بين قوله وبين خلقه، ولم يسمه قولا، فقال: {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الأعراف: ٥٤] . فلما قال: {أَلا لَهُ الْخَلْقُ} لم يبقَ شيء مخلوق إلا كان داخلاً في ذلك، ثم ذكر ما ليس بخلق، فقال: {والأمر} . فأمره هو قوله، تبارك رب العالمين أن يكون قوله خلقًا.

وقال: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان: ٣، ٤] ثم قال القرآن: {أَمرًا مِنْ عِنْدِنَا} [الدخان: ٥] ."[١]

وجاء عن الدارمي رحمه الله تعالى ما يشفي الغليل في هذه المسألة فيقول: " ولا يقال أيها المعارض: إن القرآن هو الله فيستحيل. ولا هو غير الله فيلزم القائل أنه مخلوق. ولكن يقال: كلاما لله علم من علمه، وصفة من صفاته، وأن الله بجميع صفاته إله واحد غير مخلوق، لا شك فيه. فافهم وما أراك تفهمه؛ لأنك تقول: لا يجوز إلا أن يقال: هو الله، أو غير الله. فإن قال: رجل: هو الله، أكفرته. وإن قال: غير الله قلت له: أقررت بأنه مخلوق وصوبت مذهبي؛ لأن كل شيء غير الله مخلوق.

فيقال لك: أخطأت الطريق، وغلطت في التأويل؛ لأنه لا يقال: القرآن هو الله أو غير الله، كما لا يقال: علم الله هو الله، وقدرة الله هي الله، وكذلك عزته وملكه وسلطانه وقدرته، لا يقال لشيء منها: هو الله بعينه وكماله، ولا غير الله، ولكنها صفات من صفاته، غير مخلوق وكذلك الكلام، فافهم"[٢].

وبهذا كله يتبين الفرق بين مذهب السلف ومذهب النفاة لصفة الكلام والأمر ليس مقصورا على صفة الكلام فقد نفوا كل صفات الله تعالى هروبا من المقدمات العقلية التي اعتمدوا عليها في اثبات وجود الخالق كنظرية التركيب وحدوث الأجسام.

---

[١] المرجع السابق، نفس الصفحة.

[٢] الدارمي، نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد، (١/ ٥٤٨).

الخاتمة

وفيها: أهم النتائج والتوصيات.

أولا: أهم النتائج.

١- منهج السلف في صفات الله ﷻ الاثبات المفصل والنفي المجمل كما جاء في الكتاب والسنة.

٢- طريقة السلف في اثبات العقائد موافقة للفطرة بعيدة عن التكلف والتنطع.

٣- منهج السلف أعلم وأحكم وأسلم.

٤- عقيدة السلف في صفة الكلام تحديدا أنها صفة ذاتية وفعلية.

٥- صفات الله غير مخلوقة وهي قديمة أزلية بقدم الذات وأزليتها.

٦- استخدام الألفاظ المجملة في حق الله ﷻ من الأمور المبتدعة التي ذمها السلف والأصل فيها البيان والتفصيل ومعرفة المقصود فإن كان معناه حق وله معنى يوافقه في الكتاب والسنة أقررنا بالمعنى ورددنا اللفظ لما ورد في الشرع.

٧- المعتزلة معطلة محض.

٨- ضلال المعتزلة سببه قياس الأمور الغيبية على الأمور المشاهدة.

٩- المعتزلة عندهم أن صفة الكلام مخلوقة وليست صفة لله وتضاف له من باب الاختصاص والخلق لا إضافة الصفة للموصوف.

١٠- المعتزلة جعلت العقل أهم المصادر في التلقي، بخلاف السلف جعلوه في الاستدلال دون التلقي، فالعقل يستدل له ولا يستدل به بخلاف النصوص يستدل بها ولها.

ثانياً: أهم التوصيات.

١- النجاة من الضلالة بالاعتصام بالكتاب والسنة بفهم سلف الأمة.

٢- العقيدة الصافية تكون في البعد عن التنطع والتكلف، وتكون بالتفكر والتدبر.

٣- العقيدة لا تؤخذ بالقياس العقلي إنما تؤخذ من الشرع، فقد يكون الأمر بظاهره شر وهو خير وكذلك العكس.

٤- لا يجوز لغير المتخصص النظر في شبه أهل الزيغ.

المراجع والمصادر

القرآن العظيم.

١- ابن أبي العز، محمد بن علاء الدين. (١٤٢٦هـ). *شرح العقيدة الطحاوية*. ط١. مصر: دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة.

٢- الأشعري، علي بن إسماعيل. (١٤١٣هـ). *رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب*. تحقيق: عبد الله شاكر محمد الجنيدي. ط١ . المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية.

٣- أبو البقاء، أيوب بن موسى. (١٤٢٠هـ). *الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية*. تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري. ط٢. بيروت: مؤسسة الرسالة.

٤- إبراهيم مصطفى، وأخرون. (د. ت). المعجم الوسيط. (د. ط). الاسكندرية: دار الدعوة.

٥- أبو حنيفة، النعمان بن ثابت. (١٤١٩هـ). *الفقه الأكبر*. ط١. الإمارات العربية: مكتبة الفرقان.

٦- الأشعري، علي بن إسماعيل. (١٣٩٧هـ). *الإبانة عن أصول الديانة*. ط١. القاهرة: دار الأنصار.

٧- ابن أبي يعلى، محمد بن محمد. (١٤٢٣هـ). *الاعتقاد*. المحقق : محمد بن عبد الرحمن الخميس. ط١. الرياض: دار أطلس الخضراء.

٨- ابن أحمد، عبد الله بن أحمد. (١٤٠٦هـ). *السنة*. المحقق: د. محمد القحطاني. ط١.

الدمام: دار ابن القيم.

٩- البخاري، محمد بن إسماعيل. (١٤٢٢هـ). *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه*. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. ط١. بيروت: دار طوق النجاة.

١٠-البخاري، محمد بن إسماعيل. (١٣٩٨هـ). *خلق أفعال العباد*. تحقيق: عبد الرحمن عميرة. (د. ط). الرياض: دار المعارف السعودية.

١١-البربهاري، الحسن بن علي. (١٤١٤هـ). *شرح السنة*. تحقيق خالد الردادي. ط١. المدينة المنورة: مكتبة الغرباء الأثرية.

١٢-البغوي، الحسين بن مسعود. (١٤٠٣ هـ). *شرح السنة*. تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش. ط٢. دمشق: المكتب الإسلامي.

١٣-الباقلاني، محمد بن الطيب. (١٤٠٧هـ). *تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل*. تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر. ط١. لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية.

١٤-ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (١٤١٦هـ). *مجموع الفتاوى*. المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المدينة. ط١. المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

١٥-ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (١٤٢٦هـ). *بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية*. ط١. السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

١٦-ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (١٤١٩ هـ). *الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح*. تحقيق: علي بن حسن وأخرون. ط٢. السعودية: دار العاصمة.

١٧-ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (١٤١٩هـ). *اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم*. تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل. ط٧. بيروت: دار عالم الكتب.

١٨-ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (١٤١٦هـ). *الإيمان*. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط٥. عمّان: المكتب الإسلامي.

١٩-ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (١٤٠٦هـ). *منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية*. تحقيق: محمد رشاد سالم. ط١. السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٢٠-التميمي، محمد بن خليفة. (١٤٢٢هـ). *الصفات الإلهية تعريفها أقسامها*. ط١. الرياض: أضواء السلف، الرياض.

٢١-الجبرين، عبد الله بن عبد العزيز. (د. ت). *تسهيل العقيدة الإسلامية*. ط٢. السعودية: دار العصيمي للنشر والتوزيع.

٢٢-ابن حنبل، أحمد بن محمد. (د. ت). *الرد على الجهمية والزنادقة*. تحقيق: صبري بن سلامة شاهين. ط١. (د. م): دار الثبات للنشر والتوزيع.

٢٣-ابن حنبل، أحمد بن محمد. (١٤١١هـ). *أصول السنة. ط١. السعودية: دار المنار*.

٢٤-الحكمي، حافظ بن أحمد. (١٤١٠ هـ). *معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول* المحقق: عمر بن محمود. ط١. الدمام: دار ابن القيم.

٢٥-الخميس، محمد بن عبد الرحمن. (١٤٢٥هـ). *شرح الرسالة التدمرية*. (د.ط). الرياض: دار أطلس الخضراء

٢٦-الدارمي، عثمان بن سعيد. (١٤١٨ هـ). نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد. تحقيق رشيد الألمعي. ط١. المدينة المنورة: مكتبة الرشيد.

٢٧-الذهبي، محمد بن أحمد. (١٤٠٥هـ). *سير أعلام النبلاء*. المحقق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط. ط ٣. بيروت: مؤسسة الرسالة.

٢٨-الذهبي، محمد بن أحمد. (١٤٢٤هـ). *العرش* تحقيق: محمد بن خليفة التميمي. ط٢. المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية.

٢٩-الذهبي، محمد بن أحمد. (١٤٢١هـ). *مختصر العلو للعلي العظيم*. حققه واختصره: محمد ناصر الدين الألباني. ط٢. القاهرة: المكتب الإسلامي.

٣٠-الذهبي، محمد بن أحمد. (١٤١٣هـ). المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال. المحقق: محب الدين الخطيب. ط٣. السعودية: الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية.

المؤلف: (د.ت).

٣١-الرازي، محمد بن عمر. (د.ت). معالم أصول الدين. المحقق: طه عبد الرؤوف سعد. (د.ط). لبنان: دار الكتاب العربي.

٣٢-الزركلي، خير الدين بن محمود. (١٤٢٢هـ). *الأعلام*. ط٥. الناشر: دار العلم للملايين.

٣٣-الزمخشري، محمود بن عمرو. (١٤٠٧ هـ). *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل*. ط٣. بيروت: دار الكتاب العربي.

٣٤-السجزي، عبيد الله بن سعيد. (١٤٢٣هـ). *رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت*. تحقيق: محمد با كريم با عبد الله. ط٢. المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية.

٣٥-السجستاني، سليمان بن الأشعث المعروف بأبي داود. (د.ت). *سنن أبي داود*. المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد. (د.ط).بيروت: المكتبة العصرية.

٣٦-الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم. (١٣٩٥ هـ). *الملل والنحل*. تحقيق: محمد سيد كيلاني. ط٢. بيروت: دار المعرفة، الناشر: مصطفى الحلبي.

٣٧-الطبري، محمد بن جرير. (١٤٢٠هـ). *جامع البيان في تأويل القرآن*. المحقق: أحمد محمد شاكر. ط١. الرياض: مؤسسة الرسالة.

٣٨-العمراني، يحيى بن أبي الخير. (١٤١٩هـ). *الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار*. تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف. ط١. الرياض: أضواء السلف.

العسقلاني، أحمد بن حجر. (١٣٧٩هـ). *فتح الباري شرح صحيح البخاري*. رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي. (د.ط). بيروت: دار المعرفة.

٣٩-ابن عادل، سراج الدين عمر بن علي. (١٤١٩ هـ). *اللباب في علوم الكتاب*. تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

٤٠-ابن عثيمين، محمد بن صالح. (١٤٢١هـ). شرح العقيدة الواسطية، خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل. ط٦. المملكة السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع.

٤١-ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله. (١٣٨٧هـ). *التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد*. تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري. (د.ط) المغرب: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية.

٤٢-العليمي، مجير الدين بن محمد. (١٤٣٠هـ). *فتح الرحمن في تفسير القرآن*. اعتنى به تحقيقا وضبطا وتخريجا: نور الدين طالب. ط١. دمشق: دار النوادر.

٤٣-ابن فارس، أحمد بن فارس. (١٣٩٩هـ). معجم *مقاييس اللغة*. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. (د. ط). القاهرة: دار الفكر.

٤٤-ابن القيم، محمد بن أبي بكر. (د. ت). *بدائع الفوائد*. ط١. بيروت: دار الكتاب العربي.

٤٥-ابن القيم، محمد بن أبي بكر. (١٤٠٨هـ). *الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة*. المحقق: علي بن محمد الدخيل الله. ط١. الرياض: دار العاصمة.

٤٦-ابن القيم، محمد بن أبي بكر. (١٣٩٨هـ). *شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل*. (د. ط) بيروت: دار المعرفة.

٤٧-ابن القيم، محمد بن أبي بكر. (١٤١٠هـ). *التفسير القيم*. تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان. ط١. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

٤٨-الكرماني، حرب بن إسماعيل. (١٤٣٣هـ). إجماع السلف في الاعتقاد. تحقيق: أسعد الزعتري. ط٢. القاهرة: دار الإمام أحمد.

٤٩-اللالكائي، هبة الله بن الحسن. (١٤٣٢هـ). *شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة*. تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي. ط٨. السعودية: دار طيبة.

٥٠-ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٤١٤هـ). *لسان العرب*. ط٣. بيروت: دار صادر.

٥١-ابن الموصولي، محمد بن عبد الكريم. (١٤٢٢هـ). *مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة*. تحقيق: سيد إبراهيم. ط١. القاهرة: دار الحديث. أصل الكتاب لابن القيم.

٥٢-النيسابوري، مسلم بن الحجاج. (١٣٤٧هـ). *المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم*. تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي. (د. ط) القاهرة: دار إحياء التراث العربي.

٥٣-الهمداني، عبد الجبار بن أحمد. (١٤١٦هـ). *شرح الأصول الخمسة*. تحقيق: الدكتور عبد الكريم عثمان. ط٣. القاهرة: مكتبة وهبة.

٥٤-الهمداني، عبد الجبار بن أحمد. (د. ت). *المغني في أبواب التوحيد والعدل*، تحقيق: إبراهيم الأبياري. (د. ط). (د. د) صيغة pdf.

٥٥-ابن الوزير، محمد بن إبراهيم. (١٤١٥هـ). *العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم*. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. ط٣. بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.